إصلاحات أحمد بن طولون وأثرها في مصر خلال منتصف القرن ٣هـ/٩م

دكتور/علي سليمان محمد

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد

كلية الآداب – جامعة المنوفية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين،،،

ليس من شك في أن الدولة الطولونية تمثل مرحلة انتقال مهمة في تاريخ مصر الطويل، إذ هى نهاية مرحلة المركزية والتبعية للخلافة العباسية، وبداية ظهور ونمو القومية المصرية، التي تطورت حتى صارت دولة مستقلة ذات سيادة، فقد صحب قيام الدولة الطولونية تطوراً بعيد المدى في تاريخ الشعب المصري، واستمر هذا التطور حتى أصبحت مصر مركزاً للعالم الإسلامي لمدة قرنين من الزمان، عندما أُعلن عن قيام الخلافة العباسية في القاهرة على يد الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م.

فرح ابن طولون بولاية مصر، وحمد الله كثيراً على تلك الهبة، ومن كانت مصر في عينيه بمثل هذه الصورة، فلابد أن يكون لشعبها مكانة خاصة في قلبه، وبخاصة إذا كان عليه أن يعتمد على هذا الشعب في تنفيذ خططه الإصلاحية، وبالتالي بذل كل ما في وسعه للنهوض بها، وكان رجل دولة من طراز فريد، حيث حكم ستة عشر عاما، من يسمع به يظن أنه حكم أضعاف هذه المدة، وهو شخصية جديرة بالدرس والاهتمام، وحرص على الإصلاح في المجالات كافة؛ ولذلك تحسنت الأحوال، وعم الخير والرخاء، وكان بداية الازدهار في تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر.

يرجع اختيار هذا الموضوع لأهمية البحث عن وسائل الإصلاح والتطوير عامة، والدفع بعجلة الاقتصاد إلى الأمام، وبما أن علم التاريخ هو دراسة التجربة الإنسانية في حقبة تاريخية معينة، فالتجربة المصرية في عصر ابن طولون، من بين أبرز حقب تاريخ مصر الإسلامية، يمكن أن نستفيد منها إن أنعم النظر فيها، فسيرته يضرب بها المثل، ويتحلى بها ذكر الدول.

ينقسم هذا البحث إلى ستة عناصر، هى: بعض جوانب من شخصيته التي حكمت تصرفاته فيما بعد، والتي كان لها أثر فيما نحن بصدد الحديث عنه، ثم جهوده في الإصلاح في الميدان السياسي والإداري، والاقتصادي، وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية في عهده، ثم جهوده في الناحية العلمية، وأخيرا أثر هذه الجهود ووسائل الإصلاح على الأوضاع عامة.

جوانب من شخصية أحمد بن طولون

أحمد بن طولون تركي الأصل، أُرسل والده إلى بغداد هدية من أمير بخارى نوح بن أسد الساماني، إلى الخليفة المأمون سنة٢٠٠هـ/٨١٥م[١]، وحظى طولون(البدر الكامل) في قصر الخلافة بمكانة مرموقة لكفاءته، وولد أحمد في بغداد سنة٢٢٠هـ/٨٣٥م[٢]، وأمه تسمى قاسم أو هاشم، وتفوق على أترابه في جوانب عديدة، كان لها أثرها البالغ فيما نحن بصدد الحديث عنه، منها: **التعليم الجيد** فقد اهتم طولون بتربية ابنه تربية صالحة وتلقينه العلم منذ نعومة أظفاره[٣]، فلم يكتف بالقليل من التعليم الإلزامي، بل ظهر ميله وشغفه بالتعمق في

[١] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق، محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص٣٣، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق، زكي حسن وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، سلسلة الذخائر، رقم ٨٩، ص٧٣، المقريزي: الخطط المقريزية، الجزء الأول، تحقيق، محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص٨٦٦، والجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، منشورات دار الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،٢٠٠٣، ص٨١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الثالث، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٣. شك البعض في نسب أحمد إلى طولون، حقيقة أم تبني، لكن أثبت البلوي أن نسبه إلى طولون صحيح، ودعم رأيه بأدلة من الناحية التاريخية والمنطقية. سيرة أحمد بن طولون، ص٣٣-٣٥؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٢٢-٢٣.

[٢] البلوي: سيرة أحمد ن طولون، ص٣٣، والبعض ذكر بأنه ولد في سامراء، في يوم ٢٣رمضان سنة ٢٢٠هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، ص١٧٣-١٧٤، المقريزي: كتاب المقفى الكبير، الجزء الأول، تحقيق، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص٤١٧، ولكن بناء سامراء لم يبدأ إلا سنة ٢٢١هـ، ولم تكتمل وتصلح مكانا للإقامة إلا بعد ذلك بسنوات. للمزيد، محمد أحمد زيود: العلاقات بين مصر والشام في العصرين الطولوني والإخشيدي، دار حسان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص١٧-١٨.

[٣] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٣-٤؛ ستانلي لينبول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة، أحمد سالم سالم، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٥، ١٤٢-١٤٣

The Encyclopaedia of Islam,New Edition,Volume 1, leiden, Brill,1986 ,pp278-280.

العلم، فحفظ القرآن الكريم وجوده بصوته، وقرأ الحديث الشريف والفقه[٤]، ولا شك في أن ثقافته الدينية الواسعة، كانت وراء صقل شخصيته، وقومت من سلوكه كثيرا طوال حياته، وميزته عن أقرانه، وظهر أثرها في تصرفاته، مثل: ولاؤه العميق للخلافة، ولومه لأقرانه الأتراك لما يرتكبونه في حق الخلفاء، فاستصغر عقولهم، ونأى بنفسه بعيدا عنهم، فنشأته ضبطت تصرفاته، وصف بأنه "نشأ على مذهب جميل، وحفظ القرآن وأتقنه، مع كثرة الدرس وطلب العلم[٥]"، وبهذا استطاع أن يوائم بين وازعه الديني، والواقع الذي يعيش فيه، فوجد غايته في الاتجاه إلى طلب العلم والجهاد في طرسوس[٦].

إضافة إلى هذه التنشئة المتميزة، ظهرت عليه علامات النجابة منذ صغره، فيروى أنه كان يطلب من أبيه أن يعطف على الفقراء ويكرمهم، وكان أبوه يعجبه ذلك منه[٧]، وهو أمر

---

[٤] ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، دراسة وتحقيق، محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص٢٣٠.

[٥] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٣-٤، الصفدي: الوافي بالوفيات، الجزء السادس، تحقيق، أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى،٢٠٠٠، ص٢٦٦، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، ص٨١.

[٦] تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم على الحدود بين الدولة الإسلامية والبيزنطية، موقعها الآن جنوب تركيا على البحر المتوسط، من أجل الثغور ولها مكانة عظيمة، قيل بها عشرة من قبور الأنبياء، ذكرها ابن حوقل بقوله: المدينة المشهورة المستغنى بشهرتها عن تحديدها، بناها الخليفة المأمون (في الأعلاق الخطيرة الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ) وكانت لها شهرة خاصة في أيام العيد حتى أن القضاعي يعتبرها من عجائب الإسلام الأربع، وبها قبر الخليفة المأمون الذي توفي بالقرب منها، ودفن فيها بعد غزوته ضد البيزنطيين. ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان،١٩٩٢، ص١٦٨-١٦٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الرابع، تحقيق، فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣١-٣٣، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ملوك الشام والجزيرة، الجزء الثاني، تحقيق، يحيي زكريا عبارة، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩١، احياء التراث العربي، رقم ٧٩، ص ١٥٢-١٥٦، الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤،ص٣٨٨-٣٨٩؛ علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية، على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٣٧-٥٠.

أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص٢٩؛

Corbet Eustace K: The Life and Works of Aḥmad ibn Ṭūlūn, The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, 1891, pp. 527-562, Published by: Cambridge University Press.
Stable URL: http://www.jstor.com/stable/25197067

[٧] المقريزي: كتاب المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤١٧.

غير معتاد في مثل سنه وبيئته وطبقته[٨]، مراقبا لله تعالى "إذا جرت منه إساءة استغفر وتضرع[٩]"، "وإذا ذكَّره أحد بالله وقدرته بكى بشدة[١٠]".

أقبل ابن طولون على التدريب العسكري بمثابرة وحماسة شديدة منذ نعومة أظفاره؛ فامتاز بمهارته العسكرية "كان حسن الرمي بالنشاب، لا يخطيء شيئا[١١]"، مما كان له أبلغ الأثر في نبوغ شخصيته الحربية، قوَّى فيه الاعتماد على النفس، والشجاعة والقدرة على مواجهة الأخطار، وخير دليل على ذلك: حبه للجهاد في ثغر طرسوس، وهو لم يزل في شبابه الباكر.

إذن توافر لابن طولون منذ صغره؛ تعليم جيد، وتنشئة صالحة، وموهبة فطرية، فأنتجت هذه الشخصية، وهذا درس تربوي لمن يريد أن يُنشئ جيلا قويا، "فسيرته يضرب بها المثل، ويتحلى بها ذكر الدول[١٢]".

هذه الصفات مهدت له السبيل لتولي أعلى المناصب، وهو في العشرين من عمره، فما إن توفى أبوه حتى أسندت إليه مهامه، ثم تولى إمرة الثغور[١٣]، ويبدو أن ثقافته الدينية وأخلاقه رفعته على أهل طبقته[١٤]، منها موقفه من قتل الخليفة المستعين بالله، برغم وعود السيدة قبح أم الخليفة المعتز له بتوليته على واسط[١٥]، "فإذا قرأت كتابي، فجئتني برأس

---

[٨] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٢٤.
[٩] المقريزي: الخطط، الجزء الرابع، ص٧١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٩.
[١٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٩٨-١٠٠.
[١١] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤.
[١٢] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٧٣. ذكر ذلك في استفتاح كتابه عنهم " الدر المكنون في حلى دولة بني طولون.
[١٣] المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٣١٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٤.
[١٤] المقريزي: كتاب المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤١٨؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٢٥.
[١٥] واسط مدينة في منتصف المسافة بين البصرة والكوفة، لذلك سميت واسط، بناها الحجاج عام ٨٤هـ، وفرغ من بنائها سنة ٨٦هـ، وكتب إلى الخليفة عبد الملك إني اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين سميتها واسطا، فلذلك سمى أهلها بالكرشيين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الخامس، ص٤٠٠-٤٠٥.

المستعين، قلدتك واسط[١٦]"، ومتوقع منه أن يرفض "والله لا رآني الله –عز وجل– أقتل خليفة، له في عنقي بيعة وأيمان مغلظة أبدا[١٧]".

أعجبه في طرسوس "ثغره المحبب"، ما رأى الناس عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخذ في تلقي دروس العلم ومجالسة العلماء والأخذ عنهم[١٨]، وصحب أهل الورع فتأدب بآدابهم، بالإضافة إلى دوره الرئيس وهو الجهاد الذي كان من أحب الأشياء إلى نفسه، يتوق إلى الخروج إلى الثغور ليكون في جهاد متصل ورباط دائم، وهذه أيضا صفة أصيلة فيه[١٩]، فالجهاد قضية دينية، قبل أن تكون مهمة رسمية، انطلاقا من حديث النبي – صلى الله عليه وسلم–: "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله[٢٠]".

اشتهر بعفته وعزوفه عن مجالس اللهو والطرب، وتفضيله مجالسة الرجال، وتدبير شئون دولته، وانقطاعه أحيانا إلى حياة النسك والعبادة[٢١]، وكان يقظا لأقصى درجة، حريصا على متابعة الأمور بنفسه، حتى حالة المحبوسين في سجنه كان يرسل عليهم عيونه لمعرفة ما يدور بينهم، فضلا عن ذكائه وفراسته، روي عنه صديقه أبو العباس الطرسوسي قال: "ما رأيت أقوى فراسة من ابن طولون، حتى ظن بعض خواصه أنه يوحى إليه أو سحر يفعله، فكان يقول لهم لا، بل هو قياس صحيح وتوفيق من الله"، وبلغ من يقظته وحرصه على

---

[١٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٤٠، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٨٦٧.

[١٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٤٠، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص٢٣١.

[١٨] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٥.

[19] Zaky Mohamed Hassan: Les Tulunides Etude de l, Egypte Musulmane,ala fin du 1x siecle,paris,1933, p158

[٢٠] رواه ابن عباس وصححه الألباني، الترمذي: سنن الترمذي، الجزء الثالث، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قرة بللي، الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص٤٤٩، المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الجزء الثاني عشر، تحقيق، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص٥٢٥.

[٢١] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١١٠-١١١، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٤٦.وهذا يخالف ما أورده بعض الباحثين عن ابن طولون ميله إلى الغلمان والخصيان بغرض التمتع بهم، كمظهر من مظاهر الانحراف الخلقي. خالد حسين محمود: رقيق السلطة في العصر الطولوني، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد رقم ٤٤، العدد الأول،٢٠٠٦، ص٢٥٩.

الأمن والأمان لرعيته، أنه كان يخرج ليلا في السحر لتفقد الأمن ومطاردة أهل الشر والفساد، وكان أحب شيء إلى قلبه الصدق، فكان إذا صُدق لان وأنعطف وأنعم[٢٢].

يقول أبو المحاسن[٢٣]:" كانت جميع خصاله محمودة، اتسم بالعدل والكرم والالتزام بأحكام الشرع، كفؤا للملك"، كما وصف بالنزاهة والأمانة وطهارة اليد منذ صغره، فلم ترد حادثة واحدة من قريب أو بعيد، أنه قبل رشوة أو هدية من أحد، مقابل خدمة أو مصلحة أو قضاء حاجة، وقال ابن خلكان[٢٤] "كان عادلا جوادا، شجاعا متواضعا، حسن السيرة، صادق الفراسة، يباشر الأمور بنفسه، يعمر البلاد ويتفقد رعاياه، وقورا أدب من كان يتندر عليه في مجلس ابن المدبر[٢٥].

كانت مصر خلال عصر الولاة ٢٠-٢٥٤هـ/٦٤١-٨٦٨م، تابعة تبعية مباشرة للخلافة، وكانت سلطة هؤلاء الولاة محدودة في غالب الأحيان، وبخاصة ولاة العباسيين، خشية ازدياد نفوذهم، فكثيرا ما عين الخلفاء واليا خاصا للخراج، يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة، ولا سلطة للوالي عليه، مما أدى إلى حدوث صراع بينهما، وزاد الحالة سوءا سرعة تغيير الولاة، لذا كان هدفهم الأول الثراء السريع خوفا من العزل، كما حرصوا على إرضاء أصحاب النفوذ في عاصمة الخلافة، ليظلوا في مناصبهم أطول مدة ممكنة، ووسيلة ذلك الوحيدة هى بذل المال الوفير، وطريقة الحصول عليه هى فرض المزيد من الضرائب على الناس، فضلا عن إهمال المرافق العامة[٢٦]، ووصلت هذه الضرائب حدا كبيرا من الظلم والإجحاف في نهاية عصر الولاة على يد أحمد بن المدبر[٢٧].

---

[٢٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١١٥-١١٧، ١٢٢-١٢٧، ١٣٣.

[٢٣] النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٤٣.

[٢٤] وفيات الأعيان: الجزء الأول، ص١٧٣-١٧٤، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٣٢.

[٢٥] هو الحسن بن شعره عرف بالتندر والفكاهة، وكان مضحك الخليفة المتوكل، جاء إلى مصر واختص بابن المدبر، ولماعرف ما بينه وبين ابن طولون، أخذ يتندر على ابن طولون، من أجل أن يضحك ابن المدبر ومن حضر، فحذره ابن طولون أكثر من مرة، لكنه لم يكف عن تندره عليه، فاستغل ابن طولون فرصة منه وقام بالقبض عليه وتأديبه حتى مات لوقته تحت السياط. ابن الداية: كتاب المكافأة وحسن العقبى، حرره، علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠١، ص ٨٦-٨٧.

[٢٦] للمزيد، سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، تاريخ المصريين رقم ١٤، ص٢٥-٣٣.

[٢٧] أحمد بن محمد بن عبد الله بن المدبر، من أهل العراق، أخوه الأكبر إبراهيم كان وزيرا للخليفة المعتمد بالإضافة إلى أنه كان أديبا وشاعرا، وحظى ابن المدبر بمكانة عالية لدى الخليفة المتوكل وأسند إليه عدة

ولا شك تأثر المصريون بهذه السياسة، وعبروا عن سخطهم بطرق مختلفة منها على سبيل المثال: المقاومة السلبية والهجرة وترك الأراضي الزراعية[٢٨]، والثورات المتكررة، كان أخرها ثورة البشموريين عام ٢١٦هـ/٨٣١م، في عهد الخليفة المأمون، وكانت أسبابها اقتصادية لا دينية، بسبب زيادة الخراج، واستعمال الشدة والقسوة في الجباية[٢٩]، ولما عجز الأفشين عن إخمادها، بسبب طبيعة المنطقة التي تحيط بها المستنقعات فتعيق حركة الجنود[٣٠]، وفشل محاولات الصلح والتهدئة، جاء الخليفة بنفسه على رأس جيشه، ورافقه بطريرك أنطاكية[٣١] الأنبا ديونسيوس التلمحري[٣٢]، للعمل على تهدئة الثائرين وإنهاء تمردهم بالحسنى، ويبدو أن هذا كان من عادة بعض الخلفاء وهو استخدام رجال الدين في السياسة، كما فعل مروان بن محمد (الحمار) عندما فر إلى مصر منهزما، فقام بالقبض على

وظائف إدارية ومالية مهمة، وفي عام ٢٤٧هـ، عينه الخليفة على خراج مصر، وكانت نهايته على يد ابن طولون. للمزيد، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، نشر مطبعة الغرى، النجف، العراق، ١٣٥٨هـ، ص ٤٥٠، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، الجزء الخامس، تحقيق، محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ص٣٩٠-٣٩٥، ابن وصيف شاه: جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصرية، تحقيق، محمد زينهم عزب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٥٨-٥٩. ومما هو جدير بالذكر أن أحد الباحثين نفى نسبة هذا الكتاب لابن وصيف شاه بالأدلة القوية، ورجح نسبته إلى أحد العلماء المصريين من رجال القرن الحادي عشر الهجري أو بعده، للمزيد: عبد الرازق حويزي: جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور، ليس لابن وصيف شاه المصري، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، العدد الرابع والخمسون، الجزء الثاني، ٢٠١٠، ص٢٢٠-٢٦٠.

[٢٨] سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٢٤.

[٢٩] سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٢٤٠، حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢، ص٧٠-٧١.

[٣٠] ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة، الجزء الثاني، إعداد، الأنبا صموئيل، النعام للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص٢٥٠ -٢٥٣، ص٤٨٢، موسوعة تاريخ مصر، من خلال تاريخ البطاركة، الجزء الرابع، تحقيق، عبد العزيز جمال الدين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ص٢٠٢٠٨-٢١٥، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٢٣٧.

[٣١] تقع أقصى شمال بلاد الشام على الضفة الغربية لنهر العاصي، ضمن لواء الإسكندرونة التابع الآن لتركيا، كثيرة المياه، يقال لها مدينة حبيب النجار، وبها الكف التي قيل هي كف يحيي بن زكريا عليه السلام في كنيسة بها، لها أهمية دينية كبيرة بها كنيسة مشهورة مثل كنيسة الإسكندرية وروما، تم فتحها عام ١٦هـ، واحتلها الصليبيون وكونوا بها أول إمارة صليبية في الحملة الأولى عام ٤٨٩هـ، وظلت بأيديهم حتى حررها الظاهر بيبرس عام ٦٦٦هـ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الأول، ص٢٦٦-٢٧٠، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٨-٣٩.

[٣٢] ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة، الجزء الثاني، ص٢٥٣، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق، مصطفى السقا، كامل المهندس، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص٣٨، التلمحري: تاريخ الأزمان، ترجمة شادية توفيق حافظ، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ١٣، من مقدمة المترجمة.

البطريرك ميخائيل لأنه لم يقم بدفع المال الذي عليه، كما أنه لم يفعل شيئا لردع أهل البشمور لإنهاء تمردهم[٣٣]، لكن لم تنجح هذه المحاولة، واستمرت الثورة، فاضطر الخليفة إلى استعمال القسوة في إخمادها، وحمل واليه المسئولية عنها[٣٤]، واستطاع بعد عدة معارك أن يعيد الهدوء من جديد[٣٥]، وكانت مدة إقامته بمصر تسعة وأربعين يوما[٣٦]، لكن في عهد ابن طولون انتظمت الأحوال الاقتصادية، فهدأت البلاد واختفت الثورات.

كما قامت ثورة أخرى في الإسكندرية عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م، بسبب سياسة ابن المدبر الجائرة، تزعمها جابر بن الوليد المدلجي[٣٧]، وكان معبرا عن رأي المصريين كافة، واشتعلت الثورة في الوجه البحري كله، وامتدت إلى الفسطاط ومصر الوسطى، ولم تستطع الخلافة إخمادها إلا بعد أن أرسلت جيشا بقيادة مزاحم بن خاقان وذلك عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م[٣٨]، قبل مجيء ابن طولون بأشهر قليلة، وفي هذا إشارة لطبيعة الشعب المصري، الذي يتحمل ويصبر وربما يتحامل على نفسه، فإذا ما زاد الظلم، وضاق به ذرعا انفجر كالبركان لمواجهة هذا الظلم والجور.

إذن كانت الأمور المالية هى الصخرة التي تتحطم عليها محاولات الإصلاح قبل ابن طولون، وأصبح إصلاح الوضع الاقتصادي مطلبا مهما في تطلع أهل مصر إلى حاكم يرعى شئونهم، ويخفف عن كاهلهم الضرائب الفادحة، ويهتم بعمارة البلاد، ووجدوا ضالتهم المنشودة في ابن طولون.

---

[٣٣] ساويرس: تاريخ البطاركة، ص١٦٠، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٤٦.

[٣٤] الكندي: الولاة والقضاة، صححه رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، ١٩٠٨، ص١٩٢، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص١٩٠.

[٣٥] حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص٥١-٥٤.

[٣٦] أبو المحاسن النجوم الزاهرة، الجزء الثالث ص٢١٦، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٢٣٨-٢٤٠.

[٣٧] من بني الهجيم بن عمرو بن مدلج، أعلن عن خروجه على الوالي يزيد بن عبد الله عام ٢٥٢هـ، في نواحي الإسكندرية، واجتمع إليه عدد كبير من قبيلته ومن الموالي وانتصر على قوات الوالي أكثر من مرة، وكثر مؤيدوه واستولى على الوجه البحري وجبى الخراج لنفسه، وظل ثائرا حتى تم القبض عليه في ولاية مزاحم بن خاقان، وأرسله إلى بغداد عام ٢٥٤هـ. الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٠٥-٢١١.

[٣٨] الكندي الولاة والقضاة ص٢١٧؛ سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٥٧-١٥٨، حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص٧٣-٧٧.

على أن ما كانت تخشاه الخلافة من استقلال بعض الولاة تحقق نتيجة سياسة الإقطاع التي اتبعتها مع ازدياد النفوذ التركي[٣٩]، فكان الخلفاء يجبروا على تعيين أصحاب النفوذ من الأتراك ولاة على الولايات ذات القدر ومنها مصر؛ تقديرا لدورهم فيقوم هؤلاء بإرسال من ينوب عنهم في إدارة هذه الولايات باسمهم، ويكتفون بما يحصلون عليه من فائض الأموال التي ترسل إليهم كل عام، والدعاء لهم على المنابر بعد الخليفة في خطبة الجمعة[٤٠]، ويبقون في عاصمة الخلافة للتمتع بمباهج الحياة، ومراقبة الأوضاع في قصر الخلافة عن كثب خوفا على مصالحهم، كما كان من مصلحة الخلافة بقاؤهم في العاصمة خوفا منهم، وانهارت سلطة الخلافة أمام الأتراك، وكان أخر وال عربي على مصر عنبسة بن إسحاق الضبي ٢٣٨-٢٤٢هـ/٨٥٣-٨٥٧م، وهو أخر أمير صلى بالناس في المسجد الجامع، وكان سليمان بن وهب على الخراج[٤١]، وتولى بعده يزيد التركي وعامل أهلها بالشدة والعنف، وظل واليا لمدة عشر سنوات[٤٢]، وشاعت الفوضى والاضطراب في البلاد، وعانى أهل مصر كثيرا من زيادة الأعباء المالية عليهم[٤٣]، وتولى بعده مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م، ثم ابنه أحمد ولكنه توفى بعد شهرين من ولايته، وظل ابن المدبر على الخراج، ويبدو أن مصر خلت من مسئول إداري وقت مجيء ابن طولون، فالذي استقبله وهنأه بالولاية وسلمه مقاليد الأمور، هو أحمد بن المدبر المسئول المالي في المقام الأول.

ولاية ابن طولون مصر ٢٥٤هـ/٨٦٨م

---

[٣٩] سيدة إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، المؤسسة العربية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥، ص٣٨.

[٤٠] جروهمان: المحاضرة الثالثة عن أوراق البردي، ترجمة، توفيق إسكاروس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠، ص١٢، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٣٦.

[٤١] الكندي: كتاب الولاة والقضاة، ص٢٠١-٢٠٣.كان سليمان بن وهب متوليا خراج مصر عام ٢٤٧هـ، وأنه صرف راتب أبا عبد الله الرداد المعلم الذي تولى أمر مقياس النيل، وكان ستة دنانير شهرية. رفع الإصرعن قضاة مصر، تحقيق، علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص١٠١، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصروالقاهرة، ص١٧٩.

[٤٢] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٠٣-٢٠٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثاني، ص٣٠٨.

[٤٣] ساويرس: سير الأباء البطاركة، ص٤٠٥، عبد العزيز جمال الدين: موسوعة تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، الجزء الخامس، ص١٣٦-١٣٧.

أتيحت لابن طولون الفرصة المناسبة عندما أقطع الخليفة المعتز مصر باكباك التركي، وكانت تربطه بابن طولون علاقة أسرية، فشاور باكباك عن وكيل له عليها فقيل له: ابن طولون، الثقة الأمين الخير الدين النير[٤٤]، فعينه نائبا عنه، وجاء ابن طولون إليها، وذلك في الثالث والعشرين من رمضان سنة٢٥٤هـ/٨٦٨م، وعمره أربع وثلاثون سنة[٤٥]، وكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى في طريق الألف ميل الذي قطعه سريعا، وخلد اسمه في التاريخ، حيث كان استقلاله هو الأول من نوعه في تاريخ مصر لما يقرب من ألف عام خلت.

اتصف ابن طولون–كما مر– بالذكاء وعلو الهمة، وثقافته الدينية، وخبرته العسكرية وغيرها، وهى تنبيء عن رجل متميز، وإن لم توح بإقدامه على الاستقلال بمصر منذ اللحظة الأولى، إلا أنها بالتأكيد تدل على أنه لم يأت إلى مصر ليكون نسخة من سابقيه، لم يكن همهم مصلحة البلاد والعباد، وإنما إرضاء من فوقهم، وهذه هى خلاصة التجربة الطولونية، فكان هدفه الأول إصلاح أحوال البلاد التي تولى إدارتها، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، في صورة خطوات متسقة متتابعة تتجه نحو هدف واحد ألا وهو الإصلاح[٤٦].

تولى مصر بعد باكباك يارجوخ، وكان الأخير حماه، فأرسل إليه بإقراره نائبا عنه في مصر، وقال له كلمته الشهيرة:" تسلم من نفسك لنفسك[٤٧]"، –تعني امض في طريقك كما تريد–، وتوضح إلى أي مدى أطلق يده في مصر، وبعد وفاة يارجوخ عام ٢٥٨هـ/٨٧٢م، أصبحت مصر خالصة لابن طولون، حيث انفرد بالسلطة فيها، ورغم أنه تم وضع مصر تحت سلطة المفوض ابن الخليفة المعتمد وولي عهده، إلا أن ذلك كان تقسيما عاما لإدارة

[٤٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٤٢.

[٤٥] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، تحقيق، محمد أبو الفصل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦، ص٣٨١، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٢، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٢، المقريزي: كتاب المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤١٩-٤٢٠، الخطط، الجزء الأول، ص٨٦٧، ذكر الذهبي سنه يوم قدومه مصر أربعون سنة وذكر أنه ولد بسامراء وتاريخ ميلاده عام مائتين وأربع عشرة .تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، الجزء السادس، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص٢٦٧-٢٦٨.

[٤٦] حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٣٣.

[٤٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٩-٤٦، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٢١.

الدولة بين الموفق–أخي الخليفة– الذي ولاه المشرق، والمفوض الذي تولى مصر والمغرب[٤٨]، وأصبح ابن طولون يعتمد على نفسه وماله وجيشه.

إذا نظرنا إلى قضية التقليد والحق الشرعي لابن طولون في حكم مصر، وجدنا أنه لم يعين من قبل الخليفة قط، فقد قدم أولا نائبا عن باكباك ثم يارجوخ، وبعد وفاة الأخير لم يترك ابن طولون حكم مصر، واستغل لمصلحته ظروف الخلافة في ذلك الوقت، ونجح بذكائه ورجاله وهداياه، أن يجعل الخلافة تغض الطرف عنه، إلا أنه مما يؤكد عليه أنه ظل معلنا طاعته للخليفة، المدافع عنه ضد استبداد أخيه الموفق، وهذه مسألة مهمة بالنسبة لشرعنة وضعه في مصر، لدى الرأى العام بأنه من أتباع الخليفة.

توطدت سلطته في مصر بعد وفاة يارجوخ عام ٢٥٨هـ/٨٧٢م، ولم يعد وكيلا لأحد، والدليل على ذلك أن بعض المؤرخين ذكروا أنه زاد استبداده بالأمر واستقلاله بمصر، فذكر ابن الجوزي[٤٩]"أنه صار مستبدا بنفسه في أيام المعتمد"، وابن الأثير[٥٠]يقول:" فلما توفى – يارجوخ– استقل أحمد بمصر"، وأبو المحاسن[٥١]:" فلما قتل والي مصر من الأتراك، صار ابن طولون مستقلا بها في أيام الخليفة المتعمد"، وفي رسالة الخليفة له عندما أراد عزله عن مصر بسبب وشاية "فإذا قرأت كتابنا هذا، فاستخلف على قصرك من أحببت، والبلد لك وباسمك، وأشخص إلينا[٥٢].

لذا لم يفقد ابن طولون نفوذه بعد وفاة يارجوخ؛ لأنه اعتمد على نفسه ومواهبه، وقوته العسكرية، واستطاع أن يبسط نفوذه على البلاد، برضا الخلافة، بخاصة بعد المحاولات اليائسة من قبل أعدائه في الداخل والخارج للوشاية به[٥٣]، منتهزا الظروف من ضعف

---

[٤٨] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٢٤، ٣٣، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٦٩-٧٠

[٤٩] المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص٢٣١.

[٥٠] الكامل في التاريخ، الجزء السادس، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ص٢٣٨.

[٥١] النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٦.

[٥٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٦-٥٧، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٨٣.

[٥٣] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٦-٥٧.

الخلافة، ونفوذ الأتراك، ونشوب ثورة الزنج[٥٤]، فضلا عما تمتع به من ذكاء وموهبة وحسن طالع.

جهوده في الإصلاح السياسي والإداري والعسكري

أول ما فكر فيه ابن طولون أن يكون صاحب الكلمة العليا في البلاد، وليس تابعا لأحد كما كان سابقيه، فقد كانت بعض جوانب شخصيته –التي أشرنا إليها– توحي بأنه ليس واليا نمطيا، ففكر بداية أن يشمل نفوذه كل أنحاء مصر، فعندما جاء نائبا عن باكباك كانت سلطته لا تتعدى مدينة العسكر ونواحيها، فالإسكندرية يتولاها إسحاق بن دينار، وبرقة واليها أحمد بن عيسى الصعيدي، حتى معظم أصحاب الكور في البلاد كانوا يتصرفون تصرفا مستقلا[٥٥]، ونجح في فرض نفوذه على مصر كلها، عندما تولى يارجوخ خلفا لباكباك، كتب إلى ولاتهما بإسناد ما بأيديهما إلى ابن طولون، وبالفعل تم ذلك، وأقر ابن طولون إسحاق بن دينار على الإسكندرية، لما رآه من حسن إدارته، ورفض أن يعين أخاه موسى، مما كان سببا للجفوة بينهما[٥٦]، وأبقى أحمد بن عيسى على برقة بعد اعترافه بسلطته، وخضع له بقية حكام الكور، فأبقى كلا في مكانه؛ وهذا يدل على حنكة إدارية، وبذلك نجح ابن طولون في بسط سيادته على مصر كلها، ويعد ذلك انجازا سر به سرورا كبيرا، عبر عن ذلك ساويرس بن المقفع[٥٧] قائلا:" كان الأمير قد وصل له كتاب الملك بأن يتسلم جميع كورة مصر، ففرح فرحا عظيما، وأمر جنده بأن يخرجوا معه، ويأخذوا زينتهم ويمضوا معه إلى

---

[٥٤] هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن علي بن الحسين بن على بن أبي طالب، (شكك البعض في النسب) كان فاضلا بليغا، استمال قلوب السكان في البصرة ونواحيها وغيرهم ممن كانوا يشعرون بالظلم، وقامت الحروب المتصلة بينه وبين العباسيين، حتى تم أخيرا القضاء عليه في عهد الخليفة المعتمد بفضل الموفق طلحة أخيه .للمزيد، الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، ص٤١٠-٤٣٧، ابن الطقطقا: الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دارصادر، بيروت، ص ٢٥٠-٢٥١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٢٧؛ أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧.

[٥٥] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٨٢؛ حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية العصر الطولوني، ص٣٦.

[٥٦] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الجزء الثالث، ص٢٣٠، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٤٦-٤٨.

[٥٧] ساويرس: تاريخ البطاركة، الجزء الثاني، ص٥٩، موسوعة تاريخ مصر، من خلال تاريخ البطاركة، ص٢٤٨-٢٤٩، صفاء حافظ عبد الفتاح: المواني والثغور المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، تاريخ المصريين رقم ٢٨٢، ص ١٠٠.

الإسكندرية"، وأن هذا الأمر كان مختلفا عما سبق، فلم يكن بين والي مصر ووالي الإسكندرية معاملة ولا خطابات، وتأكد هذا الشعور بما ورد على لسان الواسطي كاتبه قال:" لما وردت عليه الكتب برد الأعمال الخارجة إليه–قال ابن طولون– الحمد لله، تركنا لله عز وجل شيئا واحدا، فعوضنا عنه أشياء أعظم منه، كانت نهاية ما وُعدنا به على قتل المستعين بالله تقليد واسط، فخفنا الله عز وجل، فعوضنا جل اسمه مصر والشامات وسعة الأحوال معها[٥٨]"، وهذا السرور الذي أبداه ابن طولون لاستكمال فرض نفوذه على مصر كلها، دليل على رغبته في تقوية سلطته للقضاء على الفساد في البلاد.

في إطار سعيه للإصلاح في مصر، أمسك بإدارة البلاد كلها بيده، بعد أن كانت السياسة المتبعة قبله أن السلطة تتوزع بين ثلاث قوى رئيسة، لتكون كل قوة عينًا ورقيبًا على الأخرى، حتى لا يتطلع أحدهم إلى الاستبداد، وهى وكيل الوالي، وعامل البريد، وصاحب الخراج، فكان على الخراج والأمور المالية أحمد بن المدبر، وعلى البريد شقير الخادم مولى قبيحة أم الخليفة المعتز بالله، بالإضافة إلى القاضي بكار بن قتيبة في وظيفة القضاء.

كانت مهمة عامل البريد الرقابة العامة، وعلاقته مباشرة بالخلافة، وإطلاعها على كافة الأمور في الولاية أولا بأول، وكان متوليه فاسدا متواطئا مع صاحب الخراج، بعد وصول ابن طولون مباشرة، بادر بمخاطبة الخلافة بإيعاز من ابن المدبر بحكم صلاحيات وظيفته، يحذرها من ابن طولون، ويطالب بعزله دون وجه حق[٥٩].

لكن ابن طولون تمكن بفضل عيونه ورجاله في حاضرة الخلافة، وعلى رأسهم الوزير الحسن بن مخلد بن الجراح[٦٠]، الذي كان يطلعه على كل ما يدور في قصر الخلافة من مؤامرات ضده، ويعيد إرسال الكتب (الشكاوى) المرسلة فيه من قبل عامل البريد شقير وغيره،

---

[٥٨] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٤٨، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٤، ابن الجوزي: المنتظم، الجزء الثاني عشر، ص٢٣١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٦.

[٥٩] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص ٧٨-٧٩، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٨٣؛ وللمزيد عن صاحب البريد، نظير حسان سعداوي: نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة الفجالة، مصر، ١٩٥٣م، ص١٢٠-١٢٣.

[٦٠] الحسن بن مخلد بن الجراح (ذو الوزارتين)، تولى الوزارة بعد الفتح بن خاقان، سنة ٢٥٦هـ، للخليفة المعتمد على الله العباسي، ولقب بذي الوزارتين تقديرا لجهوده في خدمة الدولة، ووجد هذا اللقب على دينار الخليفة المعتمد سنة ٢٥٦هـ. ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية، ص٢٠٣؛ توفيق سلطان اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٠، ص١٤٧-١٤٨.

فاستدعاه ابن طولون وأمر رجال شرطته بالشدة معه، فلم يلبث أن مات في أخر يومه[٦١]، وأصبح البريد خاضعا لابن طولون، فحقق بذلك جزءا مهما من إصلاحه، وفرض سيادته على إدارة مصر، أما ابن المدبر فسيأتي الحديث عنه في الإصلاح الاقتصادي.

مضى ابن طولون في سعيه للإصلاح قدما إلى الأمام، فعمل على إقرار الأمن والنظام العام، وهو الأساس في أي إصلاح، وهو سمة بارزة من سمات عهده، فبدون الأمن لا تؤتي أي إصلاحات ثمارها، ولم يكن التصدي لهذه الفتن والثورات مجرد إقرار للأمن في مصر فقط، بل كان يحمل في طياته دفاعا عن الخلافة ضد خصومها التقليديين؛ لأن بعض هذه الفتن والثورات قامت بها شخصيات ادعت لنفسها نسبا علويا، مثل: بُغا الصغير، الذي هرب من بغداد، واستقر به المقام في مكان بين الإسكندرية وبرقة، وأعلن الخروج على الخلافة، وادعى لنفسه نسبا علويا[٦٢]، شأنه شأن كل المعارضين في ذلك الوقت، لكسب الأنصار والمؤيدين، فسمى نفسه أحمد ابن محمد بن طباطبا[٦٣]، ومن ثم جهز ابن طولون جيشا بقيادة "بهم بن الحسين" للقضاء على هذه الفتنة، وتمكن من قتله، وحمل رأسه إليه، وكان ذلك عام ٢٥٥هـ/٨٦٩م[٦٤]، ثم تمكن ابن طولون من إخماد ثورة أهل برقة بكل قوة وحسم، ومثله ابن الصوفي العلوي الذي نسب نفسه إلى على بن أبي طالب أيضا[٦٥]، وظهرت فتنته في الصعيد، وكثر أنصاره ومؤيدوه لدرجة أنه هزم جيش ابن طولون أكثر من مرة، فاضطر لإرسال قائده البارع "بهم بن الحسين"، ورغم هزيمته إلا أنه ظل يناور، ولم

---

[٦١] ملخص موت شقير أن ابن طولون أمر رجال شرطته بإحضاره من بيته إليه، وأمرهم بأن يحضروه راجلا ويسرعوا به الجري، وكان شقير بدينا مرفها، فلما مثل أمام ابن طولون أمر بالسياط والعقابان وشده فيهما، فاستغاث ساعة ووقع على الأرض، وظهر أثر الموت عليه من غير ضرب، وأمر بإرجاعه إلى بيته راكبا، فلم يمكث نهاية يومه حتى مات، فأرسل اليه ابن طولون الشهود ليتحققوا أنه مات من غير ضرب ولا سبب غير حضور أجله. البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٨-٥٩، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٨٣-٨٤.

[٦٢] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٩٦.

[٦٣] قيل أن ابن طباطبا هو شخصية علوية غير بغا، لكن رفضت سيدة كاشف هذا الرأي، وقالت لا يستند إلى مصدر. للمزيد، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٧٢.

[٦٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٦٢، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢١٣، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٨٨٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٦.

[٦٥] ، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٠-٧٢، ٦٢-٦٣، الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢١٣.

يضع حدا لهذه الفتنة إلا ظهور ثائر علوي آخر يلقب بالعمري، أخرج ابن الصوفي إلى بلاد الحجاز[٦٦]"، لكن ابن طولون قلق من ازدياد نفوذه، ورأى في بقائه انتقاصا لسيادته[٦٧]، فأرسل إليه جيشه ودار قتال بين الطرفين، انتهى بمقتل العمري على يد بعض غلمانه، وحملت رأسه أيضا إليه[٦٨]، وبذلك دان الجميع بالطاعة، وأخذ العهد عليهم أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه، ويحاربوا من حاربه من الناس جميعا[٦٩]، مما ساعده على الاستمرار في إصلاحاته، وتغلغل هيبته في نفوس الناس كبارا وصغارا[٧٠].

كما تمكن من إحباط انقلاب ابنه العباس عليه، منتهزا فرصة خروجه إلى بلاد الشام للجهاد عام ٢٦٥هـ/٨٧٩م، واستخلافه نائبا عنه في مصر، وأبقى معه الواسطي المخلص لابن طولون معينا ووزيرا، موصيا ابنه بضرورة اتباع نصيحة ومشورة الواسطي، لكن العباس انقلب على أبيه، وخرج من مصر معلنا ذهابه إلى الإسكندرية تنفيذا لأوامر تلقاها من أبيه، بعد أن أخذ كل ما في خزانة الدولة من أموال، واقترض أموالا كثيرة من كبار التجار بضمان والي الخراج[٧١]، ثم توجه بجيشه إلى برقة بعد أن أخذ معه الواسطي مكبلا في الحديد بسبب رفضه كل ما قام به[٧٢].

علم ابن طولون بنبأ عصيان ابنه، فعاد إلى مصر سريعا، حرصا على جهوده التي بذلها في الإصلاح، واستخدم مع ابنه في البداية سلاح الحيلة، فأرسل إليه وفدا برئاسة القاضي بكار بن قتيبة، لاقناعه بالعدول عن عصيانه لأبيه مقابل العفو عنه، لكنه لم

---

[٦٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٦٤-٦٧، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء السادس، ص٢٢٦-٢٢٧، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٨٨٠، والعمري نسبة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ووصف بالتقوى والورع وحبه للجهاد، وحماية ثغر مصر الجنوبي من قبائل البجة، التي كثرت غاراتها وسلبها ونهبها للناس، فحفظ هذا الثغر، وأدى له أهل هذه المنطقة الجزية، وعاملهم بود واحترام، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٦٥.

[٦٧] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٤٤.

[٦٨] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص٧٥-٧٦، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٦٧.

[٦٩] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الجزء الثالث، ص٢٣٠-٢٣٢..

[٧٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٠-٧١.

[٧١] تذكر سيدة كاشف أن حصول العباس بسهولة على هذا المال من والي الخراج، يدل على أنه لم يكن مخلصا لابن طولون، وربما كانت له يد في حركة العباس. للمزيد أحمد بن طولون، ص٦٦.

[٧٢] يلاحظ اختلاف الروايات حول تفسير سبب تمرد العباس، وربما كان للموفق دور في هذا التمرد. للمزيد سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٩٤-٩٥.

يستجب لهم، فأرسل له جيشا تمكن من هزيمته وإرجاعه إلى مصر، وعاقب كل من حرض ابنه على العصيان بالقتل، وزج بابنه في السجن[٧٣].

حرص ابن طولون على وضع نظم وتقاليد جديدة للبلاط الطولوني منذ اتخاذه القطائع عاصمة، وترك دار الإمارة بالعسكر مقر ولاة العباسيين، منها نظام الدخول والخروج من القطائع، فكان لكل فئة باب تدخل منه، فمثلا الباب الكبير لا يدخل منه إلا الأمير نفسه، وباب الميدان كان مخصصا لدخول كتائب الجيش الطولوني، ويخرج الأمراء للصلاة من باب خاص يسمى باب الصلاة، ولم تكن هذه الأبواب تفتح كلها إلا في يوم العيد أو يوم عرض الجيش[٧٤]، ومن هذه التقاليد كذلك خروجه من قصره، فكان يخرج في موكب مهيب وسط فرق الجيش والحجاب، وتخلى له الطرقات، وما يدل على ذلك إخلاء جسر النيل من العابرين تمهيدا لمسير موكب ابن طولون[٧٥]، وكيفية خروجه لصلاة الجمعة في المسجد، فكانت تجهز له دار الإمارة القريبة من المسجد، "حيث يجدد طهره ويبدل ثيابه[٧٦]"، فإذا حان وقت الصلاة خرج إلى مقصورته ثم يعود إليها بعد انتهاء الصلاة، وغيرها من التقاليد التي تدل على الحال الجديد لمصر، فلم نسمع عن وال من ولاة مصر السابقين كان له مثل هذه النظم والتقاليد[٧٧]، ومن الطريف أنها بقيت بعد الدولة الطولونية، فنجد محمد بن طغج الإخشيد يقلد ابن طولون في بلاطه وتقاليده، حيث كان شديد الإعجاب به، حريصا على التشبه به في مواكبه "أمر بالتأهب للعرض ليلة الفطر على رسم ابن طولون[٧٨]، وقلده في

---

[٧٣] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، ص٥٤٩، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٩-٢٢٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص ١١٨-١٢٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء السادس، ص٢٨٢، النويري: نهاية الأرب، الجزء الثامن والعشرون، تحقيق، نجيب مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص ٥-٦، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري، بيروت، لبنان، ١٨٩٣، ص٣٦.

[٧٤] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، ص٨٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٦.

[٧٥] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٩٧

[٧٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٣، المقريزي: الخطط، الجزء الرابع، ص٨٠.

[٧٧] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص١٨٢.

[٧٨] البلوي: سيرة احمد بن أحمد طولون، ص١٨٣، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٣٠

كثير من مظاهر حياته، فكان لا يخرج إلا وقد زين حرسه وارتدى فاخر ثيابه، وخضب رجاله لحاهم بالحناء[٧٩].

وقد تطورت الإدارة في عهده فظهرت أشياء عدت من بنات أفكاره، كعنايته بوضع الأضابير والجزازات والتقاييد، وكان حين يذهب إلى مكان يرافقه كاتب يدون كل ما يقوله أو يقال في حضرته، فإذا كان الليل خلا بكاتبه وأصلح ما كتب ليحفظ ما دار من الكلام على حقيقته، ويرجع إليه عند الاقتضاء، وكان إذا أرسل رسولا برسالة ، طلب منه أن يعيد عليه ما قاله له، فإن أحسن الإعادة أنفذه، وإن خالف في حرف استبدله، وأمر بحبسه[٨٠]، كما كان له دور في تطوير ديوان الإنشاء الذي كان موجودا قبله، لكنه كان قليل الأهمية[٨١]، واهتم بالكتابة الديوانية لتكون لمصر مراسلاتها الخاصة من استفتاح للرسائل بالدعاء بصلاح الدنيا والآخرة، والبشارة بوفاء النيل، والبشارة بالركوب لفتح الخليج، وقد اشتهر في هذا الديوان طائفة من أئمة الكتاب مثل ابن عبد كان[٨٢]، وإسحاق بن نصير[٨٣]، وكان كتابه لا يحررون كتابا حتى يعرضوه عليه، وعاتب كاتبه أبو الضحاك محبوب بن رجاء؛ لأنه أنفذ كتابا بدون إطلاعه عليه، وقال له:"ويلك حق الكتب أن تراجع فيها الأفكار[٨٤]"، فكان يدقق في كتبه الصادرة عنه، ومما كتبه ابن عبد كان بأسلوبه المتميز كتاباته إلى العباس ابنه، ويشير القلقشندي[٨٥] إلى رقة أسلوبه، ويعده خير من يمثل العصر، ويبدو أن وجود ابن عبد كان في مصر كان بداية لنهضة عظيمة في ديوان الإنشاء، أثارت حسد أهل بغداد "كانوا يحسدون أهل مصر، ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما"، ويبدو

---

[٧٩] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٣٠؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص ١٨٢، سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٠، ص١١٩-١٢٠.

[٨٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٠٠-١٠١.

[٨١] القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الأول، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٩١٧، ص٩٥، والجزء الحادي عشر، ص٢٨؛ سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٣١.

[٨٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ١٠٩-١١٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٩٨.

[٨٣] خلف ابن عبد كان في ديوان الانشا، من نصارى بغداد، جاء إلى مصر والتحق بالديوان، وكان راتبه عشرة دنانيرشهريا، وصار رئيسا لديوان الانشاء. ابن الداية: كتاب المكافأة، ص٢٩-٣٠.

[٨٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١١٢.

[٨٥] القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء الأول، ص٩٥، الجزء الحادي عشر، ص٢٩-٣٢.

أن هذه الأمور التي ابتدعها ابن عبد كان بلغت من الفصاحة والبلاغة حدا جعل كتاب الرسائل في العصر الفاطمي يقلدوه ويحذو حذوه[٨٦].

من وسائل إصلاحه في الجهاز الإداري أيضا الاعتماد على الموظفين المصريين في المناصب الإدارية في الدولة، وتقديمهم على غيرهم، فقد اختار كاتبا مصريا هو جعفر بن عبد الغفار حين أرسل كاتبه الواسطي في مهمة إلى العراق، ويبدو أن هذا الكاتب لم تكن له خبرة الواسطي، فلما أشير عليه أن يستبدله، قال:" أنا احتمله وأقنع به لأنه مصري[٨٧]، وهكذا فضل الموظف المصري من أهل البلد عن غيره، على الرغم من قلة خبرته وقال:"ينبغي لمن يكون في بلد أن يكون كاتبه منهم، ويكون شمل الكاتب فيه[٨٨]"، ويدل هذا على بعد نظره حتى يستطيع الاعتماد عليهم في بناء دولته[٨٩].

اهتم ابن طولون بتكوين جيش خاص به، يكون عدته في الإصلاح الذي ينشده في مصر، وحقيقة بناء القوات المسلحة لمصر تتجلى فيها براعة ابن طولون، ونظره الثاقب، ومقدرته العسكرية، فالجيش هو عماد الإصلاح، فلا يمكن أن ينجح الإصلاح بدون قوة تحميه، وهذه أول مرة منذ الفتح الإسلامي يكون لمصر قوة عسكرية نظامية كبيرة العدد، مستقلة عن الخلافة تقسم يمين الولاء والطاعة أمام أمير مصر مباشرة[٩٠]، وقد استغل ابن طولون الفرصة المناسبة في بناء الجيش عندما طلب منه الخليفة المعتمد الخروج بجيشه لإخضاع عيسى بن الشيخ[٩١] في بلاد الشام، الذي أعلن العصيان والتمرد[٩٢]، فاستأذن ابن

---

[٨٦] أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٠، ص٩٣-٩٤.

[٨٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٠٦-١٠٧.

[٨٨] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٠٧، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، ص٨٣.

[٨٩] السيد طه أبو سديرة: الحرف والصناعات في مصر ألإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص٩٠.

[٩٠] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الجزء الثالث، ص٢٣٠-٢٣٢، حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص ٤٥-٤٦.

[٩١] عيسى بن الشيخ الشيباني، أحد أمراء العرب، استاء من سيطرة الترك على الأحوال في بغداد، وحاول أن يقيم إمارة عربية له في فسطين وبلاد الشام، تم تعيينه واليا على فلسطين في عهد الخليفة المستعين، وعندما تولى المعتز رفض أن يبايعه، وأعلن استقلاله في فلسطين والأردن، ولكن الدولة العباسية تمكنت في النهاية من القضاء على حركته. للمزيد، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٠-٥١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء السادس، ص٢٢٦؛ محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر، ص٣٤، ٩٥-٩٦.

[٩٢] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، ص٨٤.

طولون من الخليفة تدعيم قواته وإعداد جيشه، فأذن له فانتهز ذلك في إعداد الرجال وشراء العبيد والموالي واصطناعهم، واتخاذهم عصبية يمكن الاستناد إليها والاعتماد عليها للدفاع عن دولته، لاسيما وأن الدولة الطولونية حرمت عصبية القبيلة والدم[٩٣]، مما اضطره إلى البحث عن عصبية بديلة من الموالي والعبيد المصطنعين، والذين يعدون في عرف الخبراء بطبيعة الدول وسنن قيامها مثل ابن خلدون، يدخلون في باب العصبية، قال:" إن أصحاب الدول إذا فقدوا عصبية القبيلة، واصطنعوا قوما من غير نسبهم، أو استرقوا العبدان والموالي، ضرب معهم أولئك بنسبهم في باب العصبية، وكل دولة وخدمها إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها، والأصالة في اصطناعها، كما قال صلى الله عليه وسلم "مولى القوم منهم[٩٤]".

بالغ ابن طولون في الاهتمام بالجيش من حيث العدد والعدة، وبلغ عدده –كما قيل– مائة ألف مقاتل[٩٥]، ويلاحظ أنه لم يكن أحد من بين قادته من أمراء بني طولون أو أقربائهم، فقد كان أبناؤه صغارا، ولما كبر ابنه العباس كان مصدر شقاء لأبيه، أما أخوه موسى فقد عرف عنه العناد والحسد لأخيه[٩٦]، وأسندت القيادة إلى أتراك، وهؤلاء لم يؤمنوا بأحقية بني طولون في الحكم، ولهذا جعل ابن طولون ولاءهم له شخصيا وكسب رضاهم بطرق مختلفة مثل إغداق الأموال عليهم، ودفع مستحقاتهم بانتظام، فقد بعث إلى قائده بهم بن الحسين بعد انتصاره على ابن الصوفي "خُلع وطوق من ذهب[٩٧]"، كما عين بعضهم نوابا عنه في الكور الرئيسة بمصر، مثل أحمد بن دعيم الذي ولاه مصر الوسطى[٩٨]، وموسى بن مصلح الذي

---

[٩٣] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية العصر الطولوني، ص٩٢-٩٣.

[٩٤] ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، الجزء الثاني، تحقيق، علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، مكتبة الأسرة، ص٤٩٠.

[٩٥] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء الثامن، ص١٠٧، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٨٠، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٢٥، يغلب على الظن أن هذا العدد فيه مبالغة، وربما يكون العدد الأقرب إلى التصديق النصف. للمزيد، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٢٧.

[٩٦] يروي ابن الداية أنه سأل صديقه محمد بن موسى بن طولون عن الأسباب التي فرقت بين عمه وأبيه فقال له: إن ذلك راجع إلى أن أبي كان يأتي أمورا أغضبت أخاه منه. ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٨١، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٤٧.

[٩٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٤٦.

[٩٨] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص٧-١٠، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٣٠.

جعله مديرا عاما للسجون، والذي نقل عنه ابن الداية بعض البيانات المهمة عن السجون الطولونية[٩٩]، كذلك حروبه المستمرة في الشام والثغور وغيرها، جعلت الجيش وقادته في مهام متصلة، وأمام أعداء يجب التغلب عليهم.

لاشك استفاد ابن طولون من تجربة الخلافة العباسية في اعتمادها على عنصر واحد وهو العنصر التركي، فأراد أن يكون جيشه مكونا من مختلف الجنسيات، يهمنا هنا هل ضم جيش ابن طولون بين عناصره مصريين من أهل البلاد؟، ربما كلمة الموالي التي وردت في كتابات المؤرخين تعني المصريين، " كانت له زوجة من بنات الموالي تزوجها بمصر[١٠٠]"، ولا يستبعد أن يكون قد استعان بفريق من الجند المصريين تمشيا مع سياسته المعروفة بميله لأهل البلاد وتقريبه إياهم، وضم جيشه فيلقا من سبعة آلاف مقاتل من الموالي، ويرجح بعض المؤرخين المحدثين[١٠١]، أنهم من المصريين المسلمين، وهم في نظر المؤرخين ليسوا من العرب؛ وإنما من الموالي، كما قيل بأنه استخدام بعض العرب في جيشه، وهؤلاء تمصروا باتخاذهم هذه البلاد دارا ومقاما منذ أكثر من مائتي سنة، وسار على نهجه ابنه خمارويه فاهتم بجيشه، وضم إليه طائفة من المصريين فتضاعف العنصر الوطني في جيشه[١٠٢]، وربما يؤكد ذلك ما حدث بعد سقوط الدولة الطولونية ٢٩٢هـ/٩٠٥م، أن ظهرت ثورة مسلحة بقيادة محمد بن علي بن الخليج[١٠٣]، يذكر أبو المحاسن[١٠٤]، عنه أنه كان من

---

[٩٩] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٥٠.

[١٠٠] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١٠٥.

[١٠١] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٥٨، محمود أحمد محمد قمر: الجيش المصري في عهد الدولة الطولونية، عين للبحوث والدراسات، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص٥٦-٥٩.

[١٠٢] Zaky Hassan: Les Tulunides, p170. محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر، ص٤٩.

[١٠٣] أحد قادة الجيش الطولوني، انشق عن ابن سليمان الكاتب وهو عائد إلى العراق، واستقر بالرملة، بايع لأحد أبناء البيت الطولوني وللخليفة العباسي المكتفي وله من بعدهما، وعاد إلى مصر وكثرت جموعه وانتصر على الوالي عيسى النوشري، ولم تتمكن الخلافة من القضاء عليه إلا بعد عدة محاولات. للمزيد الطبري: تاريخ الطبري، الجزء الثامن، ص٢٣٤، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٥٩، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص١١٣-١١٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٧٠.

[١٠٤] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص.١٧٠.

الجند المصريين، وأنه ولد بمدينة الفسطاط، فهو إذن يمثل عنصرا مصريا في الجيش الطولوني وازداد سلطانه فيما بعد، ويبدو أن هذا الضابط المصري قد بلغ رتبة القيادة في آخر عهد الطولونيين، وقد رغب في الانتقام لما حل بأهل مصر بعد إنتهاء الدولة الطولونية، وعز عليه أن تحمل أموال مصر على هذا النحو، وأن يقضى على الدولة الطولونية بهذه الصورة، ووجدت رغبته في الانتقام قبولا لدى بعض المصريين فبايعوه على ذلك[١٠٥].

اهتم ابن طولون بصناعة السفن الحربية، التي يتكون منها الأسطول، وأوصى شجاع بن أسلم الحاسب –رئيس دار الصناعة–بإتقان هذه الصناعة أشد ما يكون، فإنه البحر لا يخشى أحدا[١٠٦]، وتوفى ابن طولون وقد ترك أسطولا مكونا من مائتئ قطعة حربية، تامة التجهيز بالعدد والسلاح[١٠٧]، واهتم به كثيرا للدفاع عن دولته ضد أي خطر، وبنى حصن الجزيرة سنة ٢٦٣هـ/٨٧٧م، وأحاطه بالسفن[١٠٨].

علاقة ابن طولون ببلاد الشام

أدرك ابن طولون أن البعد الاستراتيجي لمصر هو بلاد الشام، لحماية حدود مصر، وحاجزا دفاعيا أماميا له، حيث دارت جميع المعارك بين الطولونيين وأعدائهم خارج حدود مصر، ولم تستطع القوات المعادية دخول مصر إلا عندما استعادتها الخلافة في حملة ابن

---

١٠٥ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٧١؛ ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص١٧١-١٧٢، محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والإخشيدي، ص١٧٣-١٧٨.

١٠٦ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٩٤-٩٥.

١٠٧ البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٩؛

Fahmy Ali Mohammed : Muslim Sea Power in the Eastern Mediterranean from the seventh to tenth century A.D,London, 1950,pp44-45 ومن غريب الاتفاق أن ابن طولون كان يخشى على دولته من غزو يأتي من البحر ومن طرسوس بالذات، ووقع مما كان يخشاه، للمزيد، محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠، ص٨٨-٨٩، صفاء حافظ عبد الفتاح: الموانى والثغور المصرية، ص٢١٧.

١٠٨ البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٠-٧٢، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٨-٢١٩، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٠٩؛ محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٨٨.

سليمان الكاتب في نهاية الدولة، أي سعي ابن طولون لفرض سيطرته على الشام حتمته الضرورة العسكرية والاستراتيجية، ولم يكن ذلك وحي المصادفة، فهى ظاهرة تاريخية قديمة وحديثة عبر التاريخ، فكلا من الشام ومصر أمن قومي للآخر[١٠٩]، وأدرك ابن طولون هذا الدرس من دروس التاريخ، فعمل على ضم الشام إلي مصر، وتكوين قوة رادعة لأي خطر يواجهه[١١٠]، ويلاحظ أن هذا لم يأخذ صورة سيطرة أحدهما على الآخر، بل أخذ صورة الدولة الموحدة، فكان أمراء مصر يتعهدونها بالعناية مثل ما يتعهدون مصر[١١١]؛ ولذلك عندما خرجت الشام عن سلطة الطولونيين في عهد خلفائه، زالت الدولة الطولونية من مصر[١١٢]، وهذا يدل على بعد نظره، إضافة إلى تلبية رغبته في الجهاد ضد البيزنطيين، فقد كان رغبته فى العودة إلى طرسوس، والقيام بدوره في حماية الحدود، فحب ابن طولون للجهاد غريزة أصيلة في نفسه.

كانت أول ضربة تلقاها من خصومه والطامعين في ملكه، من عامل فلسطين عيسى بن الشيخ، الذي طمع في مصر، وامتدت يده إلى الأموال المرسلة إلى عاصمة الخلافة، فاستولى على نحو سبعمائة وخمسين ألف دينار[١١٣]، وأعلن العصيان على الخلافة، فأمر الخليفة المعتمد ابن طولون بأن يستعد لحربه، فخرج بجيشه سنة٢٥٦هـ/٨٧٠م، إلى الشام لكنه تسلم أمرا وهو بالطريق من الخلافة بتكليف أماجور[١١٤]، بهذه المهمة بدلا منه[١١٥]،- لسبب غير معروف-.

بعد نجاح أماجور في القضاء على ابن الشيخ، بدأ يدخل حلبة الصراع مع ابن طولون، ربما لخوفه من امتداد نفوذه إلى بلاد الشام، فتعاون مع ابن المدبر في الطعن في

---

[١٠٩] حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، نشر ضمن: تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ص٣٩٢.

[١١٠] محمد عيد قويدر: "أوضاع الثغور الإسلامية الشامية في فترة الحكم الطولوني لبلاد الشام"، مجلة البلقاء، الأردن، المجلد السابع، العدد١، سنة٢٠٠٠، ص١٣٨.

[١١١] حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، ص٣٩٢

[١١٢] محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر، ص١٤٣-١٤٩.

[١١٣] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٨٠،

[١١٤] المشهور بأماجور التركي أو الافرنجي، أحد قادة الخلافة العباسية.

[١١٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥١-٥٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٨٠-٨١.

ولاء ابن طولون للخليفة[١١٦]، لكن ذلك لم يغب عن ابن طولون بفضل أعوانه في قصر الخلافة، فأحبط هذه الوشايات عن طريق كاتبه الواسطي، الذي أرسله إلى سامراء سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م، ومعه الكثير من الأموال والطرف والهدايا إلى أصحاب النفوذ في بلاط الخليفة، ونجح الواسطي في مهمته خير نجاح[١١٧].

في عام ٢٦٥هـ/٨٧٩م، قلده الخليفة المعتمد بلاد الشام وثغورها، بناء على طلبه بعد موت أماجور[١١٨]، فخرج إليها واستقبله علي ابن أماجور، وأظهر له الخضوع والولاء، فأقره على حكمه، وهذا سياسة من ابن طولون في اصطناع الرجال[١١٩]، وطلب من "سيما الطويل[١٢٠]" طاعته لكنه أعلن العصيان، فلم يجد بدا من المسير إليه، ودخول أنطاكية وقتله[١٢١]، ويدل هذا على أنه لم يلجأ إلى العنف والقسوة إلا مضطرا، وواصل سيره إلى طرسوس–ثغره المحبب– رغبة في الجهاد والمرابطة، فدخلها في خلق كثير وعز منيع[١٢٢]، مما أدى إلى شدة الزحام وغلاء الأسعار بها، فتذمر السكان وطلبوا منه الخروج بجيشه عنهم، فتظاهر بالهزيمة أمامهم حيلة لخداع البيزنطيين، وإشعارهم بقوة المدينة عسكريا[١٢٣]، مما يدل على أنه قائد عسكري وسياسي محنك، واهتم بتحصين طرسوس فكان يصنع المجانيق لإرسالها إليها، وإمدادها بالمال والسلاح والثياب، وقد أدت هذه السياسة إلى تحصينها وزيادة منعتها، وكان لذلك أثره في فرض سيادته على القوى الموجودة بالمنطقة،

---

[١١٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٦، محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والإخشيدي، ص٣١-٣٢.

[١١٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٧.

[١١٨] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٩، ابن سعيد: المغرب، ص١١٥-١١٦.

[١١٩] محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر، ص٣٧.

[١٢٠] أحد قادة العباسيين ومواليهم، ولاه أبو أحمد الموفق حلب والعواصم سنة ٢٥٨هـ. ابن هاشم الطباخ الحلبي: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، الجزء الأول، نقحه ووقف على طباعته، محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، سوريا، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص١٩٤.

[١٢١] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١١٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء السادس، ص٢٧٧.

[١٢٢] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، ص٥٤٣، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٩٢-٩٨، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الرابع، إخراج، كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص١٧٠-١٧١، الذهبي: تاريخ الإسلام، الجزء السادس، ص٢٦٨.

[١٢٣] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٩-٢٢١، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٩٧-٩٨، إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص٢١٣.

وشعرت الدولة البيزنطية بقوته، فسعى الإمبراطور البيزنطي لعقد هدنة معه وهاداه[١٢٤]، ويدل هذا على أن نفوذه أصبح مسموعا داخليا وخارجيا، ويبدو أنه كان ينوي الاستمرار في بلاد الشام للجهاد، لولا أنباء جاءته من مصر بانقلاب ابنه العباس عليه.

شق لؤلؤ غلام ابن طولون ونائبه في بلاد الشام عصا الطاعة على سيده، وأعلن انضمامه إلى الموفق، ويبدو أن ذلك تم بتدبير كاتبه محمد بن سليمان، فابن طولون نسب خيانة لؤلؤ إلى ابن سليمان هذا، والذي سيكون على رأس جيش الخلافة العباسية للقضاء على الدولة الطولونية فيما بعد[١٢٥]؛ لذلك خرج في حملة ضخمة إلى بلاد الشام عام ٢٦٩هـ[١٢٦]/٨٨٣م، وللمرة الأخيرة في حياته، واستخلف على مصر ابنه خمارويه[١٢٧]، دفاعا عن جهوده وإصلاحاته التي بذلها، وتأديبا للؤلؤ جزاء خيانته[١٢٨]، وتنفيذا لخطته في صراعه مع الموفق بتجريده من السند الشرعي الذي يستند إليه، وذلك بإحضار الخليفة المعتمد إلى مصر، ونقل كرسى الخلافة إليها، وصل بقواته إلى دمشق، وعزم على مواصلة سيره إلى طرسوس لتفقدها، وهو ما يهمنا هنا أنه رغم ذلك لم يغفل الجهاد في طرسوس، وكان قد تولى أمرها يازمان(يازمار)الخادم، وأعلن خروجه عن سلطته فتوجه إليه ليضع حدا لهذه الفتنة، لكن يازمان قام بإطلاق مياه نهر البردان[١٢٩]، فغرق معسكر ابن طولون، واضطر إلى الانسحاب، وحمل إلى مصر مريضا مرض الوفاة، وذلك في جمادى الأخرة سنة ٢٧٠هـ/٨٨٤م، بعد أن أمضى أكثر من سنة في بلاد الشام، مستميتا في الدفاع عن جهوده وإصلاحاته[١٣٠]، ونجح في فترة حرجة من عمر الخلافة العباسية، أن يحمي الحدود الشمالية

---

[١٢٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٣-١٨٤، ص١٠٩-١١٠، كان من ضمن الهدية بعض الأسرى المسلمين منهم عبد الله بن رشيد بن طاووس وبعض المصاحف. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ملوك الشام والجزيرة، الجزء الثاني، ص٢٧٤-٢٧٥.

[١٢٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٨٦، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٠٤-١٠٥.

[١٢٦] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٢٤-٢٢٥، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٩٩-١٠٠.

[١٢٧] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، ص٦١٤، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٢٤-٢٢٥.

[١٢٨] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٨٦، محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والإخشيدي، ، ص٥٥-٥٨،١٠٩-١١٠.

[١٢٩] يعرف هذا النهر اليوم بنهر قره صوره أي النهر الأسود، وبالافرنجية Cydaus . البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣١١، هامش ٣.

[١٣٠] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، ص٦١٤، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٢٩-٢٣٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١٢٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٤٥.

الغربية، من عدوان البيزنطيين، حتى أخر رمق في حياته، فقد انتصرت قواته أكثر من مرة على الدولة البيزنطية ما بين عامي٢٦٧/ ٨٨١م، وسنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م[١٣١]، ويمكن القول بأنه شهيد طرسوس، وبذلك أحيى في هذا الميدان تراث عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد وغيرهما، وجعل من مصر حصن الإسلام وخط دفاعه الأول[١٣٢].

يلاحظ على سياسة ابن طولون العسكرية، عدم خوض صراعات عسكرية إلا في أضيق الحدود وما تفرضه الضرورة، ومن ثم لا يرغب في استعمال السلاح، وإذا حدث فبسبب تعنت أعدائه، ودليل ذلك موقفه من سيما الطويل، فقد راسله ولاطفه وأمهله طويلا، لكنه تعنت وأصر على القتال، وبعد أن قتل قال ابن طولون:"علم الله جل اسمه أني كنت أحب لك غير هذا فأبيت، فأنا برئ من دمك، وما أمرت بقتلك[١٣٣]"، ودخوله طرسوس وخروجه منها على هذه الصورة، كما يدل على ذلك أيضا ما رواه ابن الداية على لسان أحد خواص ابن طولون، وكان يثق به في أمر المحبوسين" إذا تبينت من رجل براءة ساحة، فسهل عليه واستأمرني، فإني استعمل التشدد للضرورة إليه[١٣٤]؛ لذلك وصفه بعض المؤرخين المحدثين[١٣٥] بأنه كان حاكما مستبدا مستنيرا، ويلتمس له العذر في قسوته تلك، ويبدو أنه كان مضطرا لحماية جهوده التي بذلها في سبيل الإصلاح، ولمقاومة جهود أعدائه، وأعداء الإصلاح من رجال دولته وأهل بيته، وهؤلاء لا يخلو منهم زمن.

علاقة ابن طولون بالخلافة العباسية

يمكن القول بأن ولاء ابن طولون للخليفة العباسي، كان نابعا من إيمانه العميق بسلطة الخليفة الشرعية والسياسية، والتي عبر عنها بقوله:" لا رآني الله –عز وجل– أقتل خليفة له في عنقي بيعة"، ومع ذلك فإن هذا الولاء لم يمنعه من الاستقلال، وإقامة كيان خاص داخل الكيان الإسلامي العام[١٣٦]، ووفقا لهذا المعني فإن ولاء ابن طولون للخلافة لا

---

[١٣١] ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص١٥٧-١٥٨.
[١٣٢] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٨٨.
[١٣٣] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٩٦، ويذكر النويري أنه كانت له صحبة قديمة به. نهاية الأرب، الجزء الثامن والعشرون، ص٤٤؛ محمد أحمد زيود: العلاقات بين الشام ومصر، ص٤٦-٤٧.
[١٣٤] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص١٠.
[١٣٥] أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، ص١٣٥.
[١٣٦] حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، ص٤٠٣.

ينقص من سيادته شيئا، فالوحدة الروحية تجمع المسلمين، كما تجمعهم الوحدة السياسية برئاسة الخليفة، يتضح هذا الوضع من خلال مراسلاته مع الموفق طلحة صاحب النفوذ الفعلي في الخلافة، فابن طولون يحدد دوره بالمدافع عن كيان الخلافة؛ فيقول بأنه عمل على: "صيانة هذه الدولة، وحسما لأطماع الشآئنين لها والمنحرفين عنها، ومن هذه سبيله في الموالاة، ومحله في المناصحة، حريا بأن يعرف له حقه، ويوفر من الإعظام قدره[١٣٧]"، وهو أمر حسمه ابن طولون مبكرا، حتى قبل أن يتولى مصر، فقد قر في يقينه احترامه لمنصب الخليفة بوصفه زعيما روحيا للمسلمين، ورفض ما فعله بنو جنسه، وكان يعلم أن ذلك لا ينتقص من قدره شيئا، فهو في سبيل إضفاء الشرعية على حكمه، لابد أن يعترف بالخليفة، فيقوم الخليفة بتقليده مصر، أو إقرار الأمر الواقع إن صح التعبير، أما الخروج عن جماعة المسلمين فهو أمر غير وارد في فكر ابن طولون، انطلاقا من وازعه الديني، ومن ثم كان دوره بارزا في الدفاع عن الخلافة ضد أعدائها، والاشتراك في حماية حدودها، وبذلك لم يستقل ابن طولون عن الخلافة بل ظل تابعا لها.

يدل على ذلك العلاقة الطيبة بين ابن طولون، والخليفة المعتمد الذي كان هو وأخوه الموفق كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، وللموفق الأمر والنهي وقيادة الجيش[١٣٨]، وعندما أرسل الموفق رسوله نحريرا يطلب منه أموالا للمساعدة في حرب الزنج، لكن الأمر في حقيقته كان تدبير مؤامرة للإطاحة به، لذا أخبر الخليفة المعتمد ابن طولون بذلك يقول له:"إنما أنفذ نحريرا عينا عليك، فاحترس منه[١٣٩]"، مما سهل على ابن طولون كشف هذه الحيلة، وقبض على المتآمرين ومعارضي الإصلاح واقتص منهم[١٤٠]، وهؤلاء بلا شك لا يخلو منهم زمن، وغضب الموفق متذرعا بقلة الأموال، لكن يبدو أنه استاء لاكتشاف خطته وفشلها.

---

[١٣٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٨٢-٨٣، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٨٩، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٣٤.

[١٣٨] ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية، ص٢٥٠.

[١٣٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٨٠-٨١، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص ٨٧، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٣٣،

[١٤٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون ، ص ٨١. Corbet: The Life and Works of Aḥmad ibn Ṭūlūn,p548.

كان طموح ابن طولون أن يعلي شأن مصر لتكون مركزا للعالم الإسلامي كله، ففي ذروة صراعه مع الموفق طلحة، نصب من نفسه مدافعا عن الخليفة بقوة السلاح، وذلك حين كتب إليه"اجتمع عندي مائة ألف عنان، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب(المجيء) إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز[١٤١]"، وإن كان هذا حدث في ظروف خاصة، وغرضه الحقيقي ليس إخلاصا للخليفة رغم تقديره له؛ بقدر ما كان محاولة منه للانتصار على الموفق طلحة بأي وسيلة، وتجريده من السند الشرعي المستند عليه، كان واضحا أنه يريد نقل مقر الخلافة إلى مصر[١٤٢]، وبرر معارضته للموفق؛ بسبب حجره على أخيه المعتمد، ومراعاة حقوق الخليفة لأن له في عنقه بيعة[١٤٣]، وإن أصر الموفق على الحجر على الخليفة فسوف يدافع عنه حتى لو لم يبق معه أحد، ويطلب الشهادة في سبيل الله دفاعا عن الخليفة[١٤٤].

في خضم الصراع بينهما، وصل ابن طولون كتاب من الخليفة المعتمد بأنه خارج للجوء إليه، وكان ابن طولون يترقب هذا النبأ الذي سيهز العالم الإسلامي هزا لو تحقق[١٤٥]، فقد أعطى لنفسه حق المدافع عن الخلافة بالقوة، ففي رسالته إلى الخليفة عام ٢٦٨هـ/٨٨٢م، جاء فيها" إنه منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان، مؤلفة قلوبهم، شديد بأسهم، وأرى لسيدي الانجذاب لمصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز[١٤٦].

لكن نجح الموفق في إحباط هذه المحاولة، بمساعدة ابن كنداج، وذلك في شعبان عام ٢٦٩هـ/٨٨٣م، فكافأه الموفق بتعيينه على أعمال ابن طولون نكاية فيه[١٤٧]، لكن هذا التعيين لم يكن أكثر من حبر على ورق، فابن طولون لم يعد مجرد وال تابع، ويمكن تشبيه هذا

---

[١٤١]الطبري: تاريخ الطبري، الجزء الثامن، ١٠٧، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٨٠، الكندي، الولاة والقضاة، ص٢٢٥.

[١٤٢] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١٢٣.

[١٤٣] إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، ص٢١١.

[١٤٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٠٤.

[١٤٥] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٠٦.

[١٤٦] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١٢٦-١٢٧.

[١٤٧] الطبري: تاريخ الطبري، الجزء التاسع، ص٦٢٠-٦٢١، ٦٢٧، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٩٣، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص٢٢٢-٢٢٣.

القرار بقرار علي بن أبي طالب –رضى الله عنه– بعزل معاوية بن أبي سفيان –رضى الله عنه– عن الشام، وهو إذ ذاك ملك غير متوج عليها[١٤٨].

كان رد فعل ابن طولون على هذا القرار عكسيا وسريعا، ففي دمشق دعا إلى عقد مؤتمر عام ٢٦٩هـ/٨٨٣م، حضره كبار العلماء والفقهاء والقضاة وزعماء مصر والشام، وكان من بين الحضور قاضي مصر الأشهر بكار بن قتيبة[١٤٩]، وأعلن ابن طولون فيه أمام الجميع بأن الموفق نكث بيعة الخليفة وأسره، وطلب منهم الموافقة على خلعه من ولاية العهد" إن أبا أحمد الموفق خلع الطاعة، وبرئ من الذمة، فوجب جهاده على الأمة[١٥٠]"، وشهد على ذلك من حضر إلا القاضي بكار ومحمد بن إبراهيم الإسكندراني، وفهد بن موسى[١٥١]، وبرر القاضي رفضه قائلا:"أنت أوردت عليا كتابا من الخليفة المعتمد بتوليه العهد، فلو أوردت عليا كتابا من الخليفة أنه قد خلعه خلعته[١٥٢]"، وهكذا أثبت القاضي نزاهته وعدالته أمام السلطة، وأصبح موقفه الشجاع موقفا مشرفا للقضاء في الإسلام، تفخر به الأجيال، هنا رأى ابن طولون أن بكار تحداه، فلم يتورع عن سجنه، قال له:" أنت شيخ قد خرفت[١٥٣]"، وظل

---

[١٤٨] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص١٠٩.

[١٤٩] بكار بن قتيبة بن أسد بن عبيد الله بن بشير، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد بالبصرة سنة ١٨٢هـ، وعينه الخليفة المتوكل قضاء مصر سنة ٢٤٦هـ، وله أخبار مشهورة في العدل والزهد والعفة والنزاهة، تولى قضاء مصر لمدة أربعا وعشرين سنة ونصف، ودفن بالقرافة وقبره مشهور يزار ويتبرك به. للمزيد، ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق، محمد صبيح، مؤسسة دار التعاون، القاهرة، ص١٦٢، الكندي: الولاة والقضاة، ص٤٧٧-٤٧٩، السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى،١٩٦٧، ص٤٦٣، ابن أبي الوفاء: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الجزء الأول، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، الرياض، الطبعة الثانية،١٩٩٣، ص٤٥٨-٤٦١.

[١٥٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٩٦، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٩٩-١٠٠. تساءل البعض بأي حق يخلع ابن طولون ولي العهد، إلا حقه الذي بناه على القوة المسلحة التي سوغت له أن يفعل ما يشاء، البلوي: سيرة احمد بن طولون، ص٢٩٤-٢٩٥، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٢٦؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٧٥-٧٦.

[١٥١] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٢٦، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٨٨٤.

[١٥٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣١٦، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٢٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٥٢.

[١٥٣] ابن أبي الوفاء: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الجزء الأول، ص٤٥٨-٤٦١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني عشر، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، وصالح السمر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص٦٠٢، السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص٢٩١.

بكار في السجن حتى وفاة ابن طولون عام ٢٧٠هـ/٨٨٤م[١٥٤]، وكان ذلك من أخطاء ابن طولون التي عدت عليه، وندم هو نفسه عليها وطلب المسامحة من القاضي، الذي رفض وقال قولته الشهيرة" شيخ فان،وعليل مدنف،والملتقى قريب،والقاضي عز وجل[١٥٥]".

لكن الأمر ذا المغزى السياسي هو موقف الخلافة من سجن القاضي بكار، فلم ترد أخبار عن اتخاذ أي رد فعل، إذ كان من المتوقع أن يقوم الموفق طلحة بنصرة القاضي، الذي لم يتوان في الدفاع عن شرعية ولايته للعهد، ودخل السجن في سبيل ذلك، وربما دل هذا على ضعف سلطته تجاه ابن طولون، الذي وطد نفوذه وسيادته الفعلية في مصر، ويعني هذا أن استقلال ابن طولون بمصر وصل قبيل وفاته إلى الاستقلال الفعلي في الواقع.

إصلاحاته في الميدان الاقتصادي

كان صاحب الخراج وقت مجيء ابن طولون إلى مصر، أحمد بن المدبر الذي كان متوليا هذا المنصب منذ سنة٢٤٧هـ/٨٦٢م[١٥٦]، وكان مكروها من الجميع، لإسرافه في ابتزاز الأموال، وعمل على زيادة الدخل بكافة الوسائل ليس من أجل المصلحة العامة، وإنما لتحقيق المنفعة الشخصية له، وتقديم الهدايا والرشاوى إلى عيونه الذين اشتراهم بالمال في عاصمة الخلافة، وغيرهم لتأمين مركزه في هذا المنصب المهم، ومن أهم إجراءاته المالية؛ رفع قيمة الضرائب إلى أضعاف ما كانت قبله، وابتداع ضرائب جديدة، ففرض على الكلأ(العشب) ضريبة وسماها ضريبة المراعي، ففي بردية ترجع إلى سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م، ما يدل على أن هذه الضريبة كانت دينارا ونصف دينار[١٥٧]، كما فرض ضريبة على مصايد الأسماك، وحجر على النطرون[١٥٨]، بعد أن كان مباحا للناس وخصص له ديوانا وعين له

[١٥٤] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١٠٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٢٠.
[١٥٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٣٢، الكندي: الولاة والقضاة، ص٤٧٦-٤٧٨.
[١٥٦] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص ٤٧.
[١٥٧] جروهمان: محاضرات في أوراق البردي العربية، ص ٨٩-٩٠
[١٥٨] في مارس من كل عام عندما تجف البحيرات الممتدة حوالي ثلاثين كيلو متر إلى الجنوب الشرقي في منطقة النطرون شمال غرب مصر، تظهر على شواطئها طبقة سميكة من الأملاح ذات اللون الوردي تنبعث منها رائحة ذكية أقرب ما تكون إلى رائحة الورد، وتحت هذه الطبقة يوجد النطرون، وهو مادة أولية لونها مائل إلى الاصفرار، تنتج من تفاعل الأملاح البحرية مع كربونات الجير الذي من مركباته كربونات

موظفا، وحظر على الناس البيع والشراء إلا من خلاله، وبلغ به الأمر أن فرض ضرائب على كل شيء حتى الأشجار[١٥٩]، وأحصى ممتلكات الكنائس وفرض عليها ضريبة سميت بالدياربة[١٦٠]، وكان يكتب على المال الذي جمعه "هذا ما كان يسرقه من كان تقدمني[١٦١]"، فضلا عن أنه استخدم الشدة في جبايتها[١٦٢]، وجمع أموالا كثيرة، وبخاصة أثناء النزاع بين المعتز والمستعين، حيث انقطعت السبل بين مصر والخلافة، ولم يرسل المال المقرر إلى عاصمة الخلافة، وظل يحتفظ بالخراج في مصر منتظرا لما يسفر عنه الصراع، فيرسله إلى من يفوز بالخلافة[١٦٣].

رأى ابن طولون نفوذ وسطوة ابن المدبر، وفساده وظلمه للناس، وأنه أكبر عقبة أمامه في سبيل تحقيق إصلاحاته التي ينشدها، فسعى منذ البداية إلى إسقاط هيبته، فانتزع منه حرسه الخاص الذي كان يرهب به خصومه[١٦٤]، رغم أنه استقبله استقبالا حسنا، فكان به مرحبا ومهاديا بهدايا نفيسة، وتأكد ابن المدبر من نزاهة ابن طولون، عندما رفض هديته وقيمتها عشرة آلاف دينار[١٦٥]، فقال:" إن هذه لهمة عظيمة" ما ينبغي أن يثق السلطان بمن لم يكن لعشرة آلاف دينار في عينه قدر[١٦٦]"، وعلى الرغم من أنه في الوقت نفسه، قبل هذا

الصودا، وكان يستخدم قديما في التحنيط.المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص١٠٩، فؤاد فرج: القاهرة، الجزء الأول، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٤٣، ص٧٩.

[١٥٩] جروهمان: محاضرات في أوراق البردي العربية، ص٧٨-٨٠، ٨٩-٩٠.

[١٦٠] عبد العزيز جمال الدين: موسوعة تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، الجزء الخامس، ص١٠٥-١١٤، ١٨٤، المقريزي: تاريخ الأقباط، المعروف بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي، دراسة وتحقيق، عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٠٥.

[١٦١] عبد العزيز جمال الدين: موسوعة تاريخ مصر، الجزء الخامس، ص١١٧.

[١٦٢] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٤٩.

[١٦٣] عبد العزيز جمال الدين: موسوعة تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، الجزء الخامس، ص١٢٢-١٢٥، ظن بعض الباحثين المحدثين أن هذا المبلغ هو مقدار ما جمعه ابن المدبر من خراج مصر في العام الواحد، وكان ثماني ملايين دينار، وقالت بأن ما ذكر في المصادر أنه ثمانمائة مليون خطأ في النسخ. للمزيد، إيمان مصطفى عبد العظيم: سياسات الخراج المصري بين العسف والعدل، في عهدي ابن المدبر وابن طولون، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، المجلد ٤٤، ٢٠١٦، ص٣٢١.

[١٦٤] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٤٩-٥٠.

[١٦٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٣-٤٤، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٢٠.

[١٦٦] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص ٦٩-٧٠، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٨٣-٨٤.

المبلغ من أحد أعيان مصر[١٦٧]، فأرسل ابن المدبر إلى الخلافة محذرا منه[١٦٨]، لكن عيون ابن طولون في عاصمة الخلافة كانت يقظة.

أدرك ابن المدبر أنه لا سلطان له مع ابن طولون، فولاه الخليفة خراج بلاد الشام، وخرج ابن المدبر من مصر سنة ٢٥٨هـ/٨٧٢م، وحاول استرضاء ابن طولون بإهدائه ضياعا عظيمة كان يملكها بمصر، وزوج ابنته من ابنه خمارويه، وشيعه ابن طولون حتى خروجه من مصر[١٦٩]، لكنه عاد إلى سيرته الأولى في الكيد له، وكانت نهاية ابن المدبر بعد خروج ابن طولون في حملته إلى بلاد الشام عام ٢٦٧هـ/٨٨١م، فأرسل إليه رسولا يدعى"إينح" تمكن من خداعه وأحضره إليه فحبسه، وظل محبوسا حتى مات بعد أن فقد بصره[١٧٠]، وبذلك تخلص من منافس قوي له، والمنافسة بين الوالي وصاحب الخراج مشكلة قديمة في مصر بعد الفتح الإسلامي، وتمكن ابن طولون من زمام الاقتصاد، ومهد بذلك الأساس للإصلاح الذي ينشده، والاستقلال الاقتصادي لدولته، وأخذ في إصلاح ديوان الخراج.

كانت أول خطوة اتبعها في سبيل إصلاح هذا الديوان المهم، هى وضعه تحت إشرافه مباشرة، كان ذلك بداية لإطلاق يده في الشئون الاقتصادية، فولى على الخراج من قبله من يدين له بالولاء، وبذلك استكمل سيادته الرسمية والفعلية على النواحى الاقتصادية والإدارية، وعين الخليفة أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على خراج مصر[١٧١]، وكان أبو أيوب هذا آخر من عينته الخلافة في هذا المنصب، ورغم اعتراف ابن طولون به، إلا أنه قام بتعيين أمين آخر للخراج من قبله هو ابن دشومة، كما جعل أبا ذؤيب عينا عليهما[١٧٢]، مما يدل

---

[١٦٧] ابن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول، تحقيق، محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص١٦١، ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص١٤٣.

[١٦٨] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٧٥.

[١٦٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٦٠-٦٦.

[١٧٠] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص٧٢-٧٣، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٧٦-١٧٨.

[١٧١] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٦، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٢٢، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٧.

[١٧٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٦٩-٧٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٨٥.

على مدى عنايته بالشئون المالية، فهى الباب الأكبر للفساد في كل عصر، والواقع أنه لم يسمع صوتا لأبي أيوب، فقد كان ابن دشومة هو صاحب الرأي والمشورة لدى ابن طولون، ويبدو أنه حرص على توزيع السلطة داخل هذا الديوان حتى يحكم الرقابة عليه.

على أية حال أحكم ابن طولون قبضته على ديوان الخراج، وطهره من الفساد، واختار له موظفين يدينون له بالطاعة والولاء، ومشهود لهم بالكفاءة والنزاهة والعدالة والصدق، على سبيل المثال الحسن بن مهاجر الذي أخضعه لاختبار دقيق قبل تعيينه[١٧٣]، ثم مراقبتهم والتشديد عليهم بكافة السبل الممكنة[١٧٤]، وفي الحقيقة بلغ الغاية في المراقبة والمتابعة لكل العاملين في الجهاز الإداري معه، حتى كبار رجال دولته، مثل: الواسطي أقرب الرجال إليه[١٧٥]، وابن دشومة في قصته مع الفلاح العجوز[١٧٦].

ثم خطا ابن طولون في سبيل إصلاح هذا الديوان، خطوة أخرى بإلغاء كثير من الضرائب التي فرضها ابن المدبر[١٧٧]، و"ترفع عن أدناس[١٧٨] المعاون والمرافق، وأسقطها عن المصريين جميعا[١٧٩]"، فاختفت ضريبة المصايد وضريبة الأخشاب، وأبيح للناس استخدام النطرون بحرية، وكانت سياسته المالية معتدلة، وعمل جاهدا على بناء اقتصاد قوي يحمي إصلاحاته، وترشيد ما كان ينهب من ثروات مصر إلى الخزائن الخاصة، ومن دلائل توفيقه

---

[١٧٣] أورد البلوي روايته مفصلة، للمزيد سيرة أحمد بن طولون، ص١٤٢-١٤٥؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٥١.

[١٧٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٠٦.

[١٧٥] عبر الواسطي عن شدة مراقبة ابن طولون قائلا: قد حيرني أمر هذا الرجل –ابن طولون- وأدهشني، وما أشبه موارد أموره ومصادرها إلا بالآخرة، وذلك عندما كلف رجلا من خواصه أن يكون صاحب خبر عليه. للمزيد، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١١٤-١١٥.

[١٧٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٠-١٩١، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٩٧.

[١٧٧] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص ٨٥؛ محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٢٦-٢٨.

[١٧٨] أدناس مفرد دنس وهو الوسخ، والمعاون هى الضرائب الهلالية، ولعل المقصود الابتعاد عن فرض ضرائب غير شرعية، رفعا للظلم عن الناس. محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٢١.

[١٧٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٧٤، المقريزي: الخطط، الجزء الرابع، ص٦٧.

في هذه الإصلاحات أن خراج مصر ارتفع في عهده، فبلغ رقما لم يبلغه من قبل، فأصبح نحوا من أربعة مليون وثلاثمائة ألف دينار[١٨٠].

لم يدخر ابن طولون جهدا في إصلاح الشئون المالية، ففي سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م قام بإصلاح مقياس النيل[١٨١] لضبط قيمة الخراج، إذ ذهب إليه بنفسه برفقة أبي أيوب صاحب الخراج، وبكار بن قتيبة القاضي وقام بإصلاحه وعمره[١٨٢]، وهو أول من جدده، ويحتمل أن يكون قد محا اسم الخليفة المتوكل من كتابات المقياس وأبدله بآيات قرآنية مكانها[١٨٣]، وما زال هذا المقياس موجودا بجزيرة الروضة حتى اليوم، ثم تفرغ بعد ذلك إلى تحقيق النهضة الاقتصادية بمضاعفة الانتاج في كافة الميادين:-

يمثل النشاط الزراعي منذ القدم العمود الفقري للاقتصاد المصري، لذا نهج ابن طولون سياسة زراعية تهدف إلى رفع الانتاج بكافة الوسائل، فأولى عنايته بالفلاحين والمنتجين، وبث الطمانينة والاستقرار في نفوسهم، ومن أقواله في ذلك:"إن الضياع تشبه البستان، والمزارعون شجره، فإن رفق بهم، وأحسن القيام بأمرهم، طلعت الثمرة وزكت، وإن لم يفعل ذلك هلكت الشجرة وذهب ثمرها[١٨٤]"، كما فعل عمرو بن العاص من قبل، في عنايته بعمران الأرض[١٨٥].

اهتم بالأرض الزراعية والتي بلغت مساحتها في عصره نحو ثلاثة ملايين فدان[١٨٦]، وهو أكبر استغلال شهدته البلاد حتى ذلك العصر[١٨٧]، وقد أدى هذا التوسع إلى زيادة

---

[١٨٠] ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص ٢٣٣، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٩٩؛ عمر طوسون: مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص٥٠.

[١٨١] تم بناء هذا المقياس في عهد الخليفة المتوكل على الله عام ٢٤٧هـ/٨٦١م وسمى المقياس الجديد أو الهاشمي، وتولى بناءه مهندس عراقي يسمى محمد بن كثير الفرغاني، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٠٣-٢٠٤، هويدا عبد العظيم: المجتمع في مصر الإسلامية، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٥٠-١٥١.

[١٨٢] ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص١٧٩.

[١٨٣] سامي محمد نوار: المنشآت المائية بمصر، منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي، دراسة أثرية، دار الوفاء، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص١٨.

[١٨٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٠

[١٨٥] ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١١١.

[١٨٦] وحدة قياس الأرض الزراعية في مصر حتى الآن، جروهمان: أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، السفر الثاني، ص٤٥، ٤١، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٢٧٠.

الإنتاج، وقد أكدت أوراق البردي اهتمام ابن طولون بالأرض الزراعية، ومسحها مسحا دقيقا للنظر في أمر الخراج المفروض، ففي بردية ترجع إلى سنة ٢٥٨هـ/٨٧٢م، وأخرى سنة٢٦١هـ/٨٧٥م، فيهما إحصاء ووصف لجزء معين من الأرض[١٨٨]، وأمد الفلاحين بالبذور والتقاوي، وأدوات الزراعة وغيرها، ويبدو أن الدولة كانت تتقاضي أثمان هذه الخدمات بعد الانتهاء من جمع المحصول[١٨٩].

كما اهتم بشئون الري والصرف، ولا شك استفاد من نظم الري السائدة منذ القدم وأدخل عليها بعض التحسينات، وإصلاح ما خرب من الجسور والطرق وتطهير الترع ومجاري المياه[١٩٠]، وامتد أثره إلى عصر الإخشيديين بعده، حيث اتبع الإخشيد غالبا أعمال ابن طولون الاقتصادية نفسها[١٩١]، ويبدو أنه طبق نظاما يشبه السخرة في العناية بوسائل الري المختلفة من شق الترع وتطهير القنوات وخلافه، وأنه كان يسخر العمال ودواب الحمل في إتمام مثل هذه الأشياء[١٩٢]، ولم يقع عبؤها على ميزانية الدولة وحدها، فكانت تفرض ضريبة على القرى تسمى ضريبة العمارة، للإنفاق منها على صيانة المرافق العامة، ويبدو أنها كانت تختلف حسب ثروة الشخص ومساحة الأرض التي يزرعها، ويفهم ذلك مما أورده البلوي[١٩٣]، في شكوى الفلاح العجوز إلى ابن طولون أنه كان مطالبا بخمسين دينارا، فخفضها ابن طولون إلى عشرين، ومنحه خمسين فدانا يزرعها هبة وتقاويها على الدولة كل عام مجانا، وقال له:" يا شيخ لولا أن حط العمارة عنك، يحط من منزلتك في بلدك لحططتها.

لم يعتمد على الفلاح وحده، بل سخر بعض أجهزة الدولة للعمل في الانتاج الزراعي بكل إمكانياتها للمساهمة في زيادة الانتاج، فقام بتأميم الأرض الرزاعية التي تركها أصحابها

---

[١٨٧] محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٦٣، ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص١٦٠.

[١٨٨] جروهمان: محاضرات في أوراق البردي العربية، ص٨٤.

[١٨٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٢.

[١٩٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٦٣-٣٦٤.

[١٩١] سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص١٣٨

[١٩٢] جروهمان: محاضرات في أوراق البردي العربية، ص٨٩-٩٠، محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، بدون، ١٩٧٤، ص٧٦-٧٧.

[١٩٣] سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٠-١٩٢

وتولت الدولة زراعتها، ومن بينها الأراضي التي كانت لصاحب إقطاع مصر، مقابل أن يرسل جزءا من مواردها لملاكها الأصليين[١٩٤]، وكان يشرف على هذه الأراضي ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك، هذا بالإضافة إلى الأراضي الخاصة بابن طولون نفسه، والتي كانت تدر عليه دخلا عظيما، وكان دخلها يخصص لنفقاته ونفقات مطابخه، بل كان بعض إيرادها يرسل معونة لأهل طرسوس[١٩٥].

أبقى نظام القبالة في جمع الضرائب كما كان موجودا سابقا، واحترم عقود المتقبلين طالما وفوا بالتزاماتهم، ومنعهم من فسخ عقود المزارعين[١٩٦]، ووردت في أوراق البردي نماذج كثيرة لإيصالات دفع الخراج من عصر ابن طولون منها على سبيل المثال إيصال مؤرخ بسنة ٢٦١هـ/٨٧٥م، يتضح منها تطبيق نظام القبالة في دفع الخراج إلى المتقبل" أدى سسنة جرجة عما يلزمه عن آبار بقلوبدار من قبالة دشوان بن عمر دينار ونصف وربع وثمن مثقال يرسله إلى بقام بن بقطر القسطال لخراج سنة ٢٦١هـ[١٩٧]" ومثله إيصال آخر مؤرخ بعام ٢٦٠هـ/٨٧٤م.

لا ندري هل تضمنت هذه السياسة الزراعية إدخال محاصيل جديدة غير المحاصيل التقليدية التي كانت معروفة من قبل، لكننا نعلم أنه خلال عصر الدولة الطولونية شهدت مصر تطورا في زراعة البساتين والإكثار منها، ومثال ذلك خماروية وبستانه العظيم في القطائع[١٩٨]، ويبدو أن العناية كذلك امتدت إلى الزهور والتأنق في رزاعتها، وقد اهتم الخلفاء في ذلك العصر بنثر الزهور في المواسم والأعياد، وشاعت هذه الظاهرة في عهد الخليفة

---

[١٩٤] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص ٥٣.
[١٩٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٤١.
[١٩٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٧٤.
[١٩٧] جروهمان: أوراق البردي العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية، السفر الثالث، ص١٤٨-١٤٩.
[١٩٨] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص ٥٣-٥٤، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد، ص٨٨-٨٩،

المتوكل، وتجلت العناية بالزهور في مصر، فكان يصنع للخليفة بمصر قصر من الورد بقرية من قرى قليوب[١٩٩]، وكان بها جنان وورد كثيرة، وكان الناس يخرجون إليها للتنزه[٢٠٠].

وفي مجال الصناعة تمثلت جهود ابن طولون، في مظهرين هما: تطوير الصناعات القائمة وتحديثها، وهذا طبيعي لمواكبة الأوضاع الجديدة، ثم خلق صناعات جديدة، وبخاصة بعد ضم برقة وبلاد الشام مع مصر، وبالتالي انتقلت الخبرات الفنية بين مدن هذه الأقاليم الثلاثة، وتنوعت الأسواق، ولا شك ذلك يؤدي إلى رواج الصناعة، ومن أهم الصناعات التي طالتها يد التطوير والتحديث صناعة النسيج، فقد اشتهرت مصر منذ القدم بهذه الصناعة، وعرفت باسم القباطي[٢٠١]، وكانت هذه الصناعة تخضع لرقابة حكومية صارمة، وكان إنتاجها من الأقمشة يختم بخاتم الدولة الرسمي، ويقيد ما يباع فيها في سجلات خاصة، وكان حزم الأقمشة وربطها وشحنها يقوم به عمال تعينهم الحكومة[٢٠٢].

ومن مظاهر التجديد في هذه الصناعة استحداث أساليب فنية جديدة، وفي دار الآثار العربية بعض قطع نسيج عليها رسوم وزخارف طولونية ظاهرة[٢٠٣]، استجابة لحاجة قصوره ورجال حاشيته من الفرش والستائر والأقمشة الثمينة[٢٠٤]، فضلا عن تصنيع كسوة الكعبة المشرفة وتطريزها سنويا[٢٠٥]، وكان من جملة الهدايا المقررة مع الأموال التي تقدمها مصر للخلافة سنويا بعض الأقمشة الثمينة والمنسوجات النفيسة، وما كان يحتاج إليه أهلها، ويمثل

---

[١٩٩] مدينة زراعية يقال كان بها ألف وسبعمائة بستان، تمتاز بكثرة الفاكهة ورخص سعرها، وبها خليج السردوس وهو من أشهر المتنزهات بين البساتين المتشابكة والأشجار الملتفة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد الصرية، القسم الثاني، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص٧٥.

[٢٠٠] الشابستي: الديارات، تحقيق، كوكيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٦، ص٢٩٠-٢٩٤، ٢٩٨؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص ٢٠٧-٢٠٨.

[٢٠١] المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص١٨١؛ آم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٨ص٢٩٦-٢٩٧، سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص١٦١.

[٢٠٢] زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، القاهرة، ١٩٨١، ص ٨٥-٨٧، حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص٢١٠.

[٢٠٣] زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص٨٧-٨٨.

[٢٠٤] حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص٢١٢.

[٢٠٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٤، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص٢٩١.

عهد خماروية ذروة هذا الترف، فقد قيل إن نحوا من عشرة آلاف عامل، كانوا يعملون ليل نهار لتوفير متطلبات قصره من الملابس[٢٠٦]، ومن مناسج مصر كان لبس الخلفاء والأمراء، ويصدر منها إلى كل ناحية[٢٠٧].

من الصناعات التي تطورت كذلك صناعة زيت المصابيح، من بذور البنجر واللفت، وكذلك صناعة السكر المستخرج من القصب الذي شاعت زراعته في مصر منذ القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، وكذلك استخراج الأصباغ من شجر النيل الذي كان يزرع في الصعيد بصفة خاصة[٢٠٨].

كما تطورت صناعة المعادن وبخاصة الذهب، الذي راجت صناعته في عهد ابن طولون بصفة خاصة، فيما يمكن أن يسمى صناعة الترف[٢٠٩]، المصاحبة للحياة المترفة في قصور بني طولون، والتي تجلت بوضوح في جهاز العروس قطر الندى[٢١٠]، فقد كان هذا الجهاز من تحف مصر ونتاج فنها الرفيع نقل إلى عاصمة الخلافة، روعة الدولة ورفاهة العصر، والذي لا يكاد يصدق أنه صنع في مصر، وأنه أنفق فيه هذا المال[٢١١]، وتفاصيل ذلك الجهاز أبلغ دليل على النهضة الفنية الصناعية، التي اشتهرت بها مصر منذ عصور الفراعنة، حتى فاقت في ذلك معظم حضارات العالم[٢١٢].

كما تطورت صناعة الخشب، فقد اهتم ابن طولون بالخشب، لاحتياجه في صناعة السفن، فاهتم بمناطق انتاجه خاصة في الوجه القبلي، وأشرفت الدولة على تقطيعه ونقله وبيعه، وإثبات ما يجمع منه في الديوان، وكانت الفسطاط تغص بحوانيت الخشابين الذين اتسعت أحوالهم خلال هذه الفترة من كثرة المستخرج من الخشب[٢١٣]، ويمثل عهده مرحلة

---

[٢٠٦] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص١٣٧.
[٢٠٧] حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، ص٣٧٣.
[٢٠٨] آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ص٣٠٥،٢٦٤.
[٢٠٩] حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٢١٣.
[٢١٠] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٥٣.
[٢١١] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٩٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٦٢.
[٢١٢] عبد العزيز جمال الدين: موسوعة تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، الجزء الخامس، ص٣٧٢.
[٢١٣] المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٢٣٢-٢٣٣، نريمان عبد الكريم أحمد: دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١١١.

انتقال من الطراز القبطي في صناعة الخشب إلى الطراز الإسلامي البحت، وتأثرت هذه الصناعة بسامراء، مثل غيرها من العمارة الطولونية، والخشب الطولوني الموجود في دار الآثار العربية، وبعض المتاحف الأوربية عليه زخارف محفورة بعمق، ويتجلى فيها الإبداع والبراعة النادرة، واستمرت تقاليدها حتى العصر الفاطمي، ويتبين من باب جامع الحاكم بأمر الله أن أكثر التربيعات التي تزينها زخارف بناتية عميقة الحفر، وظاهر فيها تأثير الصناعة الطولونية[٢١٤].

تطورت–أيضا– صناعة الزجاج نظرا للترف الذي رافق إنشاء القطائع، وقصور أمراء بني طولون وغيرهم، ومن أشهر الصناع الذين سجلوا توقيعهم على إحدى التحف الزجاجية نصير بن أحمد بن هيثم، فقد صنع لأحد أمراء الطولونيين تحفة من الزجاج مكتوبا عليها" مما عمل للأمير ربيعة[٢١٥]" ولعل نصير الزجاج هذا كان ابنه إسحاق بن نصير الذي أشار إليه ابن النديم في أخبار الكميائيين، وقد جاء في ترجمته أنه كان يخرط الزجاج، ويصنف الكتب في هذه الصناعة، ومنها كتابه المسمى بالتلاويح وسيول الزجاج[٢١٦]، ومما يدل على تطور هذه الصناعة يوجد في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة دورقين صغيرين من الزجاج، بدنهما كمثري الشكل، ولكل منهما فوهة بيضاوية الشكل، يحمل الأول رقم سجل١٣١٠٤، والثاني١٦٣٧٣، عليهما كتابات مزخرفة تطابق الكتابات التي ترجع إلى العصر الطولوني، عبارة" مما عمل الأمير أحمد بن طولون"، وقارن بعض علماء الآثار بين هذه الكتابات، وبين أسلوب الكتابة وأشكالها على العملات الطولونية، وأكد مطابقتها لأسلوب الخط وأشكال الحروف[٢١٧].

---

[٢١٤] زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص ٩٣-٩٩، حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٢١٥. يقارن أحد الأوربيين بين الفن الطولوني وبين الفن الأوربي بأن الفن الطولوني متقدم عن الأوربي بمئات السنين. Corbet Eustace K: The Life and Works of Aḥmad ibn Ṭūlūn,p550.

[٢١٥] ربما ربيعة هذا هو ابن أحمد بن طولون الذي ثار على ابن أخيه هارون بن خمارويه سنة ٢٨٢هـ، وانتهت ثورته بالفشل.

[٢١٦] هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع في مصر الإسلامية، الجزء الأول، ص١٨٣.

[٢١٧] عبد الرءوف على يوسف: "دراسة في الزجاج المصري، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة" الجزء الثاني، دار الكتب، القاهرة،١٩٧١،ص٦٥٥،السيد طه أبو سديرة:الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص١٢٨

أما المظهر الثاني للنهضة الصناعية فهو استحداث صناعات لم تكن موجودة في مصر من قبل، مثل: صناعة الأسلحة؛ ذلك أن تجهيز الجيش كان يحتاج إلى أسلحة كثيرة لا تستورد من الخارج بل تصنع في البلاد، وهناك إشارات إلى عناية ابن طولون بدور الصناعة لتؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل، إذ عهد إلى أبي كامل شجاع بن أسلم[٢١٨] بالإشراف عليها، وطلب إليه أن تتوفر في إنتاجها "الوثاقة والجودة في الصنعة[٢١٩]"، ولا شك استفاد ابن طولون من خبرة المصريين السابقة في صناعة السفن بنوعيها الحربية والتجارية[٢٢٠]، وتوفى ابن طولون وترك أسطولا مكونا من مائتى قطعة حربية تامة التجهيز بالعدد والسلاح[٢٢١]، لحماية دولته ضد أي خطر، وبنى حصن الجزيرة وأحاطه بالسفن[٢٢٢].

شهد القرن الثالث الهجري تطورا كبيرا في ميدان التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكانت السفن التجارية تجوب البحار كلها، والقوافل تخترق الطرق البرية المعروفة، واحتلت الدولة الإسلامية مركز القلب في هذا الميدان، وأصبحت مدينتا بغداد والإسكندرية تتحكم في مصائر التجارة وتحددان أسعار السلع العالمية[٢٢٣].

لا شك أن ذلك انعكس على مصر بحكم موقعها المتميز، قال المقدسي[٢٢٤] "من كان مراده التجارة، فعليه بمصر"، وهذا من حسن طالع ابن طولون الذي عاصر هذه الفترة فكان

---

[٢١٨] من علماء الرياضيات في القرن الرابع الهجري، وأضاف على ما كتبه الخوارزمي في كتابه الجبر والمقابلة. زكي محمد حسن: مصر والحضارة الإسلامية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣، ص٣٠.

[٢١٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٠٨.

[٢٢٠] نريمان عبد الكريم أحمد: دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، ص١١٥-١١٦.

[٢٢١] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٩. Fahmy Ali Mohammed : Muslim Sea Power in the Eastern Mediterranean from the seventh to tenth,,p44-45 ومن غريب الاتفاق أن ابن طولون كان يخشى على دولته من غزو يأتي من البحر ومن طرسوس بالذات، وتحقق مما كان يخشاه فعندما جاء ابن سليمان الكاتب إلى مصر لإسقاط الطولونيين رافقه أسطول طرسوسي بقيادة دميانة، وهزم الأسطول المصري في معركة عند تنيس وأسر قائدة، مما كان سببا في إلحاق الهزيمة بهم. للمزيد محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٨٨-٨٩، صفاء حافظ: المواني والثغور المصرية، ص٢١٧.

[٢٢٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٧٠-٧٢، الكندي: الولاة والقضاة، ص٢١٨-٢١٩، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٠٩؛ محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٨٨.

[٢٢٣] آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ص٣١٢.

[٢٢٤] أحسن التقاسيم، ص٣٥.

عليه أن يستفيد من المكوس والجبايات التي تفرض على هذه التجارة، فتدفقت الأموال عليه بصورة لم تشهدها مصر من قبل[٢٢٥].

وعلى الرغم قلة الوثائق فإننا نلمح صورا من هذا النشاط التجاري، واختلاف كبار التجار إلى مصر، وإقامتهم بها واستثمار أموالهم في أسواقها، مثل: معمر بن محمد الجوهري صديق ابن طولون الحميم[٢٢٦]، كان له نشاط تجاري عالمي، وكان له وكلاء في أسواق الشرق وبخاصة العراق، ولعب دورا مهما في حياة ابن طولون، فقد كان يرسل من خلاله الأموال والهدايا التي يريدها عيونه ورجاله في قصر الخلافة ببغداد[٢٢٧]، ويدل هذا على اهتمام ابن طولون الكبير بفئة التجار والأعيان، التي لها أثر سياسي بارز –في كل عصر– فاعتمد عليهم كثيرا ، كما أنهم رأوا فيه ما يحقق مصالحهم وبخاصة في تلك الحقبة المضطربة، لذا تم التعاون بين الطرفين، فبفضلهم تمكن ابن طولون من الوصول إلى كبار الشخصيات في قصر الخلافة، كما قاموا بدعمه وإحباط محاولات الوشاية به، فكانوا بمثابة حائط صد أمامي له في قصر الخلافة، وإذا أراد أحد القادة الخروج إلى مصر هرع إليه هؤلاء يخوفونه مغبة ما يقدم عليه، ويطالبونه برد ما عليه من ديون قائلين له:" لا يرجى قفول من حارب مائة ألف عنان[٢٢٨]"، وبذلوا له من أموال ابن طولون التي خصصها لهذه الغاية، وأراحوا ابن طولون من شره.

انعكس هذا الرواج على ازدهار التجارة المحلية، فقد كانت بعض السلع تستهلك محليا في الأسواق، وأدى زيادة الإنتاج إلى رخص الأسعار فزاد الإقبال على الشراء، ويدل على ذلك وصف البلوي[٢٢٩]، لأسواق مدينة القطائع المتخصصة في كل نوع من أنواع البضائع، وازدحامها بالباعة والمشترين، كما أن السمعة الحسنة التي حازها الدينار الأحمدي، شجعت أصحاب رؤوس الأموال على المجيء إلى مصر للتجارة والاستثمار، فقد وفدت عناصر

[٢٢٥] عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص٦٩.
[٢٢٦] البلوي: سيرة احمد بن طولون، ص٦٠، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٧٨.
[٢٢٧] حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٢١٩.
[٢٢٨] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٩٥.
[٢٢٩] سيرة أحمد بن طولون، ص٥٣-٥٤.

كثيرة من الفرس، كانوا أهل ثقة اختير منهم ثلاثين رجلا ضمن جماعة الشهود[٢٣٠]، وكان لهم شأن في الحياة الاقتصادية زمن ابن طولون، منهم على سبيل المثال أحمد بن يوسف بن إبراهيم صاحب كتاب المكافأة وأبوه، الذي اقتنى كثيرا من الضياع، وتولى الوظائف الرسمية، وكان تاجرا، ويتبين مما ورد في كتابه أنه كان في ريف مصر لتحصيل الأموال من تجار الريف "كانت لنا أسلاف بسمسطا[٢٣١] وضواحيها، فخرجت لقضائها في رفقة التجار الذين كانوا يحملون البز والطيب، وما يحتاج إليه للأرياف[٢٣٢]" وقد ورد في وثائق الجنيزة بعض أسماء هؤلاء التجار الذين أتوا إلى مصر من العراق وإيران وبلاد ما وراء النهر، وهو ما يتضح من أسمائهم مثل السمرقندي والنيسابوري والتستري[٢٣٣]، ومنهم الماذرائيون الذي كانوا من أصحاب الضياع والثروات في مصر وكانوا عراقيين[٢٣٤]

اهتم ابن طولون بإصلاح العملة فسك الدينار الأحمدي المنسوب إليه[٢٣٥]، وأسس لأول مرة في مصر دارا لضرب النقود، امتازت بعيارها الجيد[٢٣٦]، ووجدت دنانير من العصر الطولوني في دور حفظ مجموعات النقود، مسجل عليها "ضرب هذا الدينار، بمصر سنة ست وستين ومائتين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، المعتمد

---

[٢٣٠] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٥، الكندي: الولاة والقضاة، ص٤١٢؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ص٣٢٢.

[٢٣١] من قرى الصعيد الأدنى بالقرب من البهنسا غربي النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الثالث، ص٢٥٠.

[٢٣٢] كتاب المكافأة، ص٣٢-٣٤، حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية العصر الطولوني، ص٢١٩-٢٢١.

[٢٣٣] عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص٧٠.

[٢٣٤] آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ص٣٢٢-٣٢٣.

[٢٣٥] وسبب سك هذا الدينار الأحمدي وشهرة عياره عن غيره قصة البحث عن الكنوز في منطقة الأهرام التي أشرف عليها ابن طولون، واكتشف ذهبا كثيرا في حوض كبير مكتوب عليه انا فلان بن فلان الملك الذي ميز الذهب من شئونه وغشه وادناسه فمن أراد أن يعلم فضل ملكي على ملكه فليعلم فضل عيار دينارى على عيار دينارە. للمزيد البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٤-١٩٦، المقريزي: رسائل المقريزي، النقود القديمة الإسلامية، دراسة وتحقيق، رمضان الدربي وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٨، ص١٦٨-١٦٩.

[236] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٦، المقريزي النقود القديمة الإسلامية، ص ١٦٨-١٦٩، Zaky Hassan: الأب أنستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩، ص٥-٥٧.
: Les Tulunies,p210-211.

إلى الله أحمد بن طولون[٢٣٧]، وامتاز بثقل وزن الذهب فيه، وخلوه من الغش والتزييف، حتى تتم المعاملات في جو من الثقة والطمأنينة[٢٣٨]، وكانت السكة في مصر قبله تتبع سكة الخلافة، يقول المقريزي: " إن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة، وسكتها إنما هى سكة بني أمية ثم بني العباس، إلا أن ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية[٢٣٩]، والعملة الجيدة الموثوق بها تعمل على رفع الميزان التجاري، ويكفي أن نقارن بين الدينارين العباسي والأحمدي، لندرك سر إقبال الناس على أسواق مصر[٢٤٠]، ويدل هذا على ارتفاع المستوى الاقتصادي لمصر في عهد ابن طولون نتيجة إصلاحاته المتعددة، وقد قلد الإخشيد ابن طولون فسك الدينار الإخشيدي[٢٤١].

سعى ابن طولون بكل جهد لاستمالة المصريين إلى جانبه واسترضائهم ليحظى بولائهم له، فهم الأساس الذي يشيد عليه سلطانه، إذا أراد أن ينجح في سياسته الإصلاحية [٢٤٢]، وبالتالي اختلفت سياسته عمن سبقه من ولاة، فقد كان فرحا بولايته مصر كثيرا، وحمد الله على تلك الهبة، ومن كانت مصر في عينيه بمثل تلك الصورة، فلابد أن يكون لشعبها مكانة خاصة في قلبه، خاصة إذا كان عليه أن يعتمد على هذا الشعب في تنفيذ مشروعاته الإصلاحية، ولا شك نجح في ذلك، فقد خرج بعض شيوخ مصر ووجوهها إلى العراق شاكرين سيرته فيهم، ورغم ما يمكن أن يقال بأن ذلك من باب الدعاية له، وأنه الذي أخرجهم، إلا أن ذلك يعبر أيضا عن حقيقة تؤكدها أمور مصر الداخلية في عهده، فالبلوي[٢٤٣] يؤكد ذلك:" إن إشفاق ابن طولون على أهل مصر، كان يتعدى إشفاق الوالد على ولده، يحوطهم ويرعى أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل مكروه عنهم"، ورغم مبالغة البلوي في

---

237 Lane poole Stanley: Catalogue of the collection of Arabic coins preserved in the khedivial library at cairo, london,1897, p135-136.

٢٣٨ المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٥٠.

٢٣٩ النقود القديمة الإسلامية، ص١٦٨-١٦٩.

٢٤٠ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص٥٤.

٢٤١ سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص١٩٢-١٩٥، محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، ص٢٨.

٢٤٢ إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية، مكتبو الانجلو، القاهرة، ١٩٧٥، ص٢٥٩.

٢٤٣سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٩.

تصوير هذا الحب، إلا أن ذلك لا ينفي وجوده، فقد بالغ ابن طولون في التقرب من المصريين، فتزوج منهم وكانت فكرته في استمالة أهل البلاد، تنبع من طموحاته في بناء دولته المستقلة، كان يقول: ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه، وسماحته على من يقصده، فإنه يملكهم ملكا لا يزول به عن قلوبهم[٢٤٤]، كما كان اهتمامه برعاية مصالحهم ينبع من هذا المنطلق، قال معبرا عن هذا: إنا كلفنا من القيام بأمر هذه البلدة ما كلفناه، فإن نحن أعطينا أنفسنا حظها من النوم والراحة، وأهملنا الفكر في تدبير أحوالها، والشغل بما يعود به صلاح أمورها، وصيانة أهلها، فأرى أن أتعب ويناموا، أصلح من أن استريح ويخافوا ويسهروا"، لدرجة أنه أوصى ابنه خمارويه بالمصريين[٢٤٥].

يلاحظ رعاية ابن طولون شملت المصريين جميعا، حيث لم يفرق بين مسلم وغيره، واستعان ببعض أهل الذمة في منشآته المعمارية، وكثيرا ما استشارهم في شئون دولته، واحتفظوا ببعض الوظائف المالية الكبرى، وبعضهم عمل في قصره مثل "ندوسة" وكان ثقة عنده في جميع أحوال داره[٢٤٦]، وربما كان يشغل وظيفة الخازن[٢٤٧]، ويشير البلوي[٢٤٨] إلى رجل آخر يسمى ابن أبي الذؤيب كان قبطيا، وصل إلى منصب أعلى مما صل إليه "ندوسة" فقد كان من حجاب القصر، وكان يلازم ابن طولون كظله، وربما أكل معه ونادمه، وكان ابن طولون يطمئن إليه ويستشيره في كثير من الأمور، وكان له أصدقاء من الرهبان، ويستجيب لمطالبهم، فحين شكوا له فرض ابن المدبر الجزية عليهم، فكتب لهم كتابا وطلب منهم أن يسلموه له بلطف يأمره فيها بإسقاطها عنهم[٢٤٩]، وأحيانا كان يذهب إلى دير القصير[٢٥٠]، روى البلوي[٢٥١]، عن لسان أحد رهبان هذا الدير قوله:" كثيراً ما يطرقنا الأمير

---

[٢٤٤] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب،١٣٣.
[٢٤٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٠٠، ٣٣٨-٣٣٩.
[٢٤٦] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص١٠٢
[٢٤٧] حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص١٩٨.
[٢٤٨] سيرة أحمد بن طولون، ص٢١٧.
[٢٤٩] المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٤٤
[٢٥٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١١٨، هو دير في الطريق إلى حلوان على مقربة من المعصرة الحالية، يعد من أشهر الأديرة التاريخية، كان يقصده ابن طولون وابنه خمارويه كثيرا، وكان محكم البناء، بني أعلاه خمارويه غرفة لها أربع طاقات إلى أربع جهات، الشابستي: الديارات، ص٢٨٤-٢٨٨، ص١٨٤، المقريزي الخطط، الجزء الثاني، ص٥٠٢.

ويخلو في بعض قلالينا"، وظهر عطفه على رهبان هذا الدير في أكثر من مناسبة، وكان الرهبان يحظون منه بعناية خاصة، فقد بلغه أن أحد قادته، أخذ من أحد الرهبان خمسمائة دينار، فأمر بردها إلى صاحبها، وعنف هذا القائد وأدبه، وهذا دليل على استمالة ابن طولون لأهل البلاد، والاعتماد على نسيج مصري واحد لتوطيد دعائم الإصلاح الذي كان ينشده.

لم يغفل كذلك طقبة العمال والحرفيين، وأمر بأن يكون نهاية العمل حتى وقت العصر فقط، وصار بعد ذلك سنة مرعية في مصر[٢٥٢]، وهكذا كانت رعاية ابن طولون للمصريين عاملا مهما في بناء دولته، والتفاف المصريين حوله، بالإضافة إلى حرصه على تحرى العدل في سياسته، فاستمرار الملك مع وجود العدل أمر لا شك فيه، فالعدل أساس الملك، قال الشاعر أبو الفتح البستي:

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالملك يبقى مع الكفر البهيم ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر[٢٥٣]

كما قام بكثير من أعمال التعمير والإنشاء، ومن أهم هذه المنشآت:-

مدينة القطائع

اهتم ابن طولون بتأسيس عاصمة جديدة تلائم وضعه الجديد، كعادة مؤسسي الدول، إذ انتقال السلطة من فرد إلى آخر، غالبا ما يكون له أثر مباشر على العمارة، ويتضح بصفة خاصة في مقر الحكم، الذي يمكن أن ينتقل إلى مكان جديد[٢٥٤]، وهذا ما فعله ابن طولون، فتأسيس عاصمة جديدة يعني ظهور كيان جديد، وأراد أن يشبع بها طموحه نحو الأبهة والعظمة على غرار سامراء[٢٥٥]، وإن كان الدافع الظاهر لبناء القطائع هو ازدحام

---

[٢٥١] سيرة أحمد بن طولون، ص ١١٨

[٢٥٢] المقريزي: الخطط، الجزء الرابع، ص٦٢؛
Corbet : The Life and Works of Aḥmad ibn Ṭūlūn,p536

[٢٥٣] من بحر الوسيط. ابن الوطواط: غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، تعليق وضبط، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص٤٨.

[٢٥٤] خالد عزب: دار السلطنة في مصر، العمارة والتحولات السياسية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٧.

[٢٥٥] فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص٤٢٣، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢٤٣.

مدينة العسكر[٢٥٦]، وهى المرة الأولى التي يتجه إليها حكام مصر نحو التوسع والمغالاة في المظاهر العمرانية، بعد أن كانت البساطة والاعتدال هى الغالبة في عهود الولاة السابقين[٢٥٧]، واختار لها مكانا يقع على سفح جبل يشكر إلى الشرق من العسكر، وإلى الشمال الشرقي من الفسطاط[٢٥٨]، وشرع في البناء عام ٢٥٦هـ/٨٧٠م، وقسم المنطقة إلى قطع وزعها بين جنده وحاشيته وغيرهم، وسميت كل قطعة باسم من يسكنها، فكان هناك قطيعة الروم، وقطيعة البزازين وقطيعة السودان، ولذلك اطلق عليها القطائع، وبنيت فيها المرافق العامة والأسواق وغيرها، وعمرت أحسن عمارة[٢٥٩]، واتسعت مساحتها حتى اتصلت المباني بالعسكر والفسطاط.

بنى لنفسه قصرا عظيما، وأقام أمامه ميدانا واسعا، تقع القلعة الآن مكانه[٢٦٠]، وسمى القصر كله بالميدان[٢٦١]، وقد زاد خمارويه في هذا القصر الذي بناه أبوه، وأسرف في الترف وخصص له فيه مكانا سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب، فكان من المباني التي تثير العجب[٢٦٢]، كل ذلك صار أثرا بعد عين بعدما جاء محمد ابن سليمان الكاتب، وأزال الدولة الطولونية ومحا آثارها.

البيمارستان

هو المشروع الرئيس للرعاية الصحية للمصريين، أنشأه ابن طولون سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م، وأنفق على بنائه ستين ألف دينار[٢٦٣]، وقد خصصه لعلاج المصريين،

---

[٢٥٦] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٢-٥٣.

[٢٥٧] فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٢٢،

[٢٥٨] وضح حدودها بعض الأثريين، من الغرب شارع السد، ومن الشرق ميدان صلاح الدين، وميدان المنشية، ومن الشمال شارع شيخون والصليبة، وميدان السيدة زينب، ومن الجنوب شارع الشيخ سليم إلى قلعة الكبش. زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص ٥٧-٥٨، فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٢٣، فؤاد فرج: القاهرة، الجزء الثاني، ص٣٥٤.

[٢٥٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٣-٥٤، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٨٠-٨٥.

[٢٦٠] فؤاد فرج: القاهرة، الجزء الثاني، ص ٣٢٧.

[٢٦١] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٤، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٢١.

[٢٦٢] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، ص٨٨-٨٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٥٤، للمزيد في وصف القطائع وقصر ابن طولون. البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٥٢-٥٦، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، ص ١٢١، زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص٥٨-٦٢، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢٤٠-٢٤٥.

[٢٦٣] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٥٠-٣٥١.

وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، ويبدو أنه كانت هناك أماكن أخرى يعالج فيها هؤلاء، وكان العلاج فيه بالمجان، بدون تمييز بين الناس في الأديان أو المذاهب، فكان المريض إذا دخل فيه تنزع ثيابه، ويودع ما معه من مال مع الثياب عند أمين البيمارستان، ثم تعطى له ثياب أخرى يلبسها، ثم يبدأ علاجه بالأدوية والأغذية حتى يتم شفاؤه، وكان دليل شفائه أن يأكل دجاجة ورغيفا، فإذا أكلها أذن له بمغادرة البيمارستان، ويرد له ثيابه وماله الذي جاء به[٢٦٤]، وحرص ابن طولون على تفقد هذا البيمارستان بنفسه في كل يوم جمعة، فيتفقد خزائن الأدوية، ومستلزماتها، ويتابع أعمال الأطباء، كما يزور المرضى ويعمل على مواساتهم، وإدخال السرور عليهم، كما اشتمل على قسم للأمراض النفسية، ويعد أول مستشفى عام في تاريخ مصر الإسلامية[٢٦٥].

عين الماء

من المشاريع المهمة التي تهتم بخدمة المصريين، لتوفير الماء في الصحراء، في منطقة المعافر في الجنوب الشرقي للفسطاط، حفرها ابن طولون عام ٢٥٩هـ/٨٧٢م[٢٦٦]، وكانت لهذه العين أهمية خاصة في نقل الماء للمارين والمقيمين بهذه المنطقة، وكانت بناء عظيما لدرجة أن أسرة الماذرائيين الشهيرة برغم ثرائها العريض، حاولوا إقامة مثل هذه القناطر فلم ينجحوا[٢٦٧]، وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار[٢٦٨]، وكانت هذه العين سببا في ازدياد العمران في المنطقة، وتنافس الناس في اقتناء الدور حولها، وأمدت رواد الصحراء بالماء[٢٦٩].

الجامع الطولوني

---

[٢٦٤] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٤٠٥.
[٢٦٥] حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، ص٣٩٧.
[٢٦٦] أشارت المصادر أن سبب بنائها الخياط الذي طلب من ابن طولون أن يقتصد في شرب الماء لقلة الماء في هذه المنطقة. للمزيد، البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٠-١٨٢، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٤٥٧. وتعلق سيدة كاشف بأنها من الأساطير. أحمد بن طولون، ص٢٥١.
[٢٦٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٠-١٨١، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص٥٧-٥٨.
[٢٦٨] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٤٥٧.
[٢٦٩] أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ص١١٥-١١٦.

هو ثالث المساجد الجامعة التي بنيت في مصر، شرع في بنائه سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م وأتمه سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م[٢٧٠]، فوق قمة جبل يشكر التي عرف عنها بأنها بقعة مباركة، مكان مناجاة موسى عليه السلام ربه، كما أنها كانت مشهورة بإجابة الدعوات[٢٧١]، وهو من أكبر المساجد مساحة، إذ تبلغ مساحته حوالي ستة أفدنة ونصف، وهو عبارة عن مربع تقريبا ضلعه ١٦٢.٢٥ في ١٦١.٥٠، ويتوسطه صحن مكشوف تحيط به أروقة من جميع الجهات عدا جهة القبلة[٢٧٢]، تشبه ما كان موجودا في جامع سامراء، وكان له اثنان وأربعون بابا، وزعت توزيعا متناسبا على طول امتداد واجهات المسجد، لتسهيل الدخول والخروج من المسجد نظرا لاتساع رقعته[٢٧٣].

يمتاز هذا الجامع ببنائه بالآجر المكسو بالجص، ووجود دعامات مشيدة من الآجر لحمل العقود، ورفع السقف بدلا من الأعمدة الأسطوانية، كما هو الحال في جامع مدينة سامراء الذي بناه الخليفة المعتصم سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، ويروي أنه قال: أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى، فقيل له: يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر، وهذا ما نفذه على خير وجه المهندس المكلف بالبناء، بأحجار قطعت من مكانه وليست أعمدة الكنائس التي منع ابن طولون من اقتلاعها، عندما عرض عليه الأمر بأنه يحتاج إلى ثلاثمائة عمود تجمع من الكنائس والمعابد، فلما سمع بذلك المهندس النصراني الذي بنى له عين الماء، وكان ابن طولون غضب عليه وحبسه في المطبق، فأرسل إليه بأنه يمكن أن

---

[٢٧٠] اختلف حول تاريخ البناء لكن ذلك حسب اللوحة التأسيسية المثبتة في جدار القبلة بالخط الكوفي على لوح من الرخام. زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ص٢٧، سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢٤٦-٢٤٧، فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٦٧.

[٢٧١] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٤٥، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٢٢-١٢٣؛ فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٦٤، حسن الباشا: القاهرة، تاريخها، فنونها ، آثارها، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة،١٩٧٠، ص٤٣٧، أحمد عبد الرازق: تاريخ مصر وآثارها الإسلامية، ص١١٧-١١٨.

[٢٧٢] فريد شافعي: العمارة الربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٦٧-٤٦٨، إمام الشافعي محمد محمود، وأشرف صالح محمد سيد: "جامع ابن طولون، الرمزية السياسية، الأسطورة، المعتقد الشعبي"، مجلة التراث العربي، العدد ٣٩، ٢٠١٨، ص١٥.

[٢٧٣] أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ص١٢٢-١٢٣.

يبني المسجد بلا عمد إلا عمودي القبلة، فأحضره وطلب منه تصويره له على جلد فأعجبه واستحسنه، فأطلق له النفقه مائة ألف دينار، وإن احتاج إلى زيادة زاده[٢٧٤]، وهذه رواية غير صحيحة الغرض منها النيل من الإسلام والمسلمين، عن طريق تصوير أهل الذمة بأنهم مضطهدين، وأنهم كانوا من يعانون من تخريب كنائسهم، والاستيلاء على عمدها، واستخدامها في عمائر المسلمين، الذين صوروا على أنهم كانوا دائما في حاجة إلى خبرة النصارى في مجال العمارة والفنون[٢٧٥]، بل العكس هو الصحيح فلم ترد إشارة إلى تحامله ضد أهل الذمة خلال حقبته[٢٧٦].

كما تمتاز مئذنة هذا الجامع بأنها أشهر مئذنة بين مآذن مصر، وقيل إن ابن طولون صممها بنفسه على ورقة[٢٧٧]، وهى مربعة في جزئها الأسفل، أسطوانية في جزئها الأوسط، مثمنة في جزئها العلوي، وتعرف بالملوية أو المدورة، ذات السلالم الخارجية، تشبه مئذنة جامع سامراء، والمئذنة تصميم معماري له رمزية سياسية، يُنبي عن رغبة ابن طولون في بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين في المدينة، وتوجه رسالة للآخرين عن مدى قوة الدولة[٢٧٨].

إصلاحه في مجال الحياة العلمية

[٢٧٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٢-١٨٣، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٢٦٥. ويعلق فريد شافعي بأنه إذا كان فيها شيء من الصدق فتدل على أن المسلمين عرفوا تخطيط المسجد قبل ذلك المهندس النصراني. العمارة العربية في مصر الإسلامية ن المجلد الأول، ص٤٧٧.

[٢٧٥] فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص٤٧٤-٤٧٥، محمود محمد خلف: "أسرة الفرغاني ودورها في تطور الهندسة المعمارية في مصر الإسلامية"، مجلة جيل، العلوم الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، العدد ٢٥، ٢٠١٦، ص١١-٢٥.

[٢٧٦] قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، عين للدراسات، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٤٢-٤٣.

[٢٧٧] ذكر المقريزي أن ابن طولون كان لا يعبث مطلقا، وحدث مرة أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده، فلما فطن أنه نظر إليه ولم تكن هذه عادته، قال: تبنى المنارة التي للتأذين هكذا. المقريزي: الخطط، الجزء الرابع، ص٧٣-٧٤، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٢٤.

[٢٧٨] إمام الشافعي محمد، وأشرف صالح محمد: جامع ابن طولون، الرمزية السياسية، الأسطورة، المعتقد الشعبي، ص١٨.

سعى ابن طولون بقدر ما يستطيع في تشجيع الحركة العلمية، سواء في العلوم الشرعية أو العملية، فقد اهتم بتعليم وتحفيظ القرآن الكريم وعلوم الشرع[٢٧٩]، وجعل مسجده مكانا للتدريس، فكان العالم الربيع بن سليمان[٢٨٠]، له مجلس فيه لرواية الحديث وتعليمه للناس، ووهبه ابن طولون ألف دينار يوم افتتاح المسجد[٢٨١]، وكان ابن طولون يشهد بعض حلقات التدريس، مثل مجالس إملاء القاضي بكار ابن قتيبة، فكان يسبقه الحاجب ويقول للحاضرين:" لا يتغير أحد من مكانه، فما ينظر بكار إلا وابن طولون إلى جواره[٢٨٢]، وكان يعظمه ويرفع قدره، قبل أن ينكبه في خلع الموفق[٢٨٣]، ولم يكن يفعل مع بكار ذلك فقط، بل كان يجالس الفقيه محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم وغيره، ويجري عليهم الأرزاق الكثيرة[٢٨٤]، فعندما غضب على القاضي بكار وقرر حبسه، واسترد منه عطاياه وهباته، بخلاف راتبه المقرر له، من قبل الخليفة، وكان مائة وثمانية وستين دينارا شهريا[٢٨٥]، مقدارها ستة عشر كيسا، كل كيس به ألف دينار، فأرجعه إليه بكار بختمه[٢٨٦]، وكان يقتصر في معيشته من وقف لأبيه، كما كان يبعث رسله إلى العلماء بعطاياه فأرسل رسوله إلى الربيع ابن سليمان بكيس فيه ألف دينار سبعمائة له، ولابنه أبي الطاهر ثلاثمائة، وأحضر الربيع ابنه وأمره بقبض المال[٢٨٧].

---

[٢٧٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٦-١٨٨، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٩٦.

[٢٨٠] الربيع بن سليمان المرادي نسبة إلى قبيلة مراد اليمنية ت٢٧٠هـ، صاحب الشافعي، وهو الذي روى أكثر كتبه، قال الشافعي: الربيع راويتي، وتولى التدريس في حلقته بعده، وعندما مات صلى عليه خماروية. ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها، ص٣٠، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص٢٣٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص٢٩١-٢٩٢، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٤٨، السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، ص٣٤٨.

[٢٨١] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٢٦٥.

[٢٨٢] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني عشر، ص ٦٠٠، ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، ص١٠١.

[٢٨٣] الكندي: الولاة والقضاة، ص٤٧٧-٤٧٩، الذهبي: تاريخ الإسلام، الجزء السادس، ص٣٠٥.

[٢٨٤] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٤٩.

[٢٨٥] ابن حجر: رفع الإصرعن قضاة مصر، ص٩٩-١٠٠.

[٢٨٦] الكندي: الولاة والقضاة، ص ٤٧٧، ابن أبي الوفاء: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الجزء الأول، ص٤٥٨-٤٦١، الذهبي: تاريخ الإسلام، الجزء السادس، ص ٣٠٣-٣٠٥.

[٢٨٧] الذهبي: تاريخ الإسلام، الجزء السادس، ص ٣٠٣-٣٠٥، ٣٦٨.

كانت مصر مركزا علميا مهما يفد إليها طلاب العلم والعلماء وبخاصة من المغرب والأندلس، لتلقي العلم أو للتدريس، وكان ابن طولون يراعيهم ويحسن إليهم، وأوقف أوقافا كثيرة للنفقة عليهم[٢٨٨]، مما يدل على رغبة صادقة في نشر العلم، نظرا لشغفه العلمي منذ صغره، وممن جاء إلى مصر في عهده بعض علماء الأندلس، فرحب بهم وعين بعضهم في المناصب المهمة، منهم على سبيل المثال: مدلج بن عبد العزيز الأندلسي ت بالفسطاط ٢٥٩هـ/٨٧٢م[٢٨٩]، وابن حجيرة القرطبي ت ٢٩٣هـ/٩٠٦م[٢٩٠]، وعمران الطليلطي ت ٢٩٥هـ/٩٠٨م[٢٩١]، وكانوا يسكنون جامعه، ويدرسون فيه في أيامه وبعده، وكان يجري عليهم الأزراق كل شهر، وتمتعوا بحقوقهم كاملة، حتى إنهم قدموا على أنفسهم حاكما يتحاكمون إليه في طوارئ أمورهم[٢٩٢].

اشتهر من العلماء في عهده قحزم بن عبد الله الأسواني ت٢٧٠هـ/٨٨٤م، يكنى بأبي حنيفة أصله قبطيا، وكان من خيرة تلاميذ الشافعي، وكان مفتيا ومقيما بأسوان حتى وفاته، وأبو علي كنيز خادم الخليفة المنتصر كان من أئمة المذهب الشافعي خرج إلى مصر بعد مقتل المنتصر، واهتم بحضور حلقات علم ابن عبد الحكم وغيره من علماء المالكية وناظرهم، فحقدوا عليه ووشوا به عند ابن طولون، بأنه جاسوس فحبسه سبع سنين، وبعد وفاة ابن طولون أطلق سراحه، وذهب إلى الإسكندرية وأقام بها، وأعاد كل صلاة صلاها في الحبس، ثم خرج إلى الشام وعمل بالتعليم في جامعها حتى وفاته[٢٩٣].

---

[٢٨٨] السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، ص١٢٥

[٢٨٩] أندلسي سكن مصر، وكانت له رحلة، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، تحقيق، بشار عواد معروف، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، عياض: ترتيب المدارك، الجزء الرابع، تحقيق، عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص١٨٦.

[٢٩٠] محمد بن حجيرة يكنى أبا عبد الله، من اهل قرطبة، كانت له رحلة وتوفي بمصر، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، المجلد الثاني، ص٢٩.

[٢٩١] من أهل طليطلة، كانت له رحلة وسمع من أهل المشرق عامة، وتوفى بمصر سنة ٢٩٥هـ.ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، المجلد الثاني، ص٤٢٢.

[٢٩٢] ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، بدون، ص٢٦-٢٧.

[٢٩٣] السيوطي: حسن المحاضرة، الجزء الأول، ص٣٩٩.

اشتهرت مصر في عهد ابن طولون بالتقدم في علم الطب، يروي ابن الداية[٢٩٤] أنه كان مصاحبا لطبيب اسمه علي المتطبب المعروف بالديدان، وأن هذا الطبيب كان ملما بكتب أفلاطون ومبرزا في الطب، كما عرفنا من خلال مرض ابن طولون وخلافه مع أطبائه، الكثير من الأخبار الطريفة عن صناعة الطب في مصر، وعن الأطباء الحذاق في مهنتهم ومعاونيهم، مثل: طبيبه سعيد بن توفيل الذي كان حاذقا في صنعته، والحسن بن زيرك الذي اشترك في علاج ابن طولون، وأنه كان يعمد في تطبيبه فضلا عن الدواء إلى إراحته وعلاجه نفسيا٢٩٥.

أثر جهود ابن طولون الإصلاحية

من نتائج سياسة الإصلاح التي اتبعها ابن طولون تولية ابنه خمارويه الحكم وراثة، باعتراف الخلافة العباسية به خلفاً لأبيه، بعد أن أثبت كفاءته في تثبيت أركان دولته، ففي عام٢٧٣هـ/٨٨٦م، لم يجد ولاة الأمر في بغداد بُدا من الاعتراف بخمارويه، وأرسلوا له كتابا بذلك "كتبوه بأيديهم تعظيما لخمارويه وتقديرا له[٢٩٦]، وحمل هذا الاعتراف تطورا مهما في شرعية حكم الطولونيين لمصر، ومن ضمن الاتفاق أن يتولى خمارويه وولده حكم مصر والشام والثغور ثلاثين سنة، لا يهددون بعزل أو تدخل في شئونهم[٢٩٧]، فكان هذا الاعتراف أمرا جديدا في وضع الدولة الطولونية الشرعي، فقد استوفت الشكل، وأصبحت من الناحية الرسمية دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمي والفعلي[٢٩٨].

كان رخاء مصر في عهد ابن طولون مضربا للأمثال، ولا شك أن ذلك نتج من محاربته للفساد بكافة أشكاله، وجمع أموالا كثيرة كانت عدة له في خطواته التي خطاها في سبيل الاصلاح الشامل، بدءا من شراء الذمم الخربة في بغداد (داء كل عصر)، واستمالة القواد والموظفين، وتجهيز جيشه بكامل عدته، ثم بناء مشاريعه الضخمة، ومتابعة الجهاد في بلاد الشام، ورغم كل هذه النفقات فإنه ترك بعد وفاته ثروة طائلة، ما بين أموال نقدية عشرة

---

[٢٩٤] كتاب المكافاة، ص٤٠-٤١.
[٢٩٥] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٢١-٣٢٢؛ سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢٣٥-٢٣٦.
[٢٩٦] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٣٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٥١.
[٢٩٧] الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٣٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٥١.
[٢٩٨] حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص١١٤.

ملايين دينار، وعينية سبعة آلاف من الموالي، وأربعة وعشرين ألفا من الغلمان، وآلاف الخيول والجمال، ومئات من البغال والدواب وغيرها[٢٩٩].

ظهر أثر سياسته في أوجه النشاط الاقتصادي، ونعمت البلاد بالرخاء، وامتلأت خزائن البلاد بالقمح وانحفض سعره، فأصبحت العشرة أرادب تباع بدينار واحد[٣٠٠]، كما كان الخبز يزيد رطلين في الوزن عن سواه، وهذا الرخاء من سمات العصر الطولوني؛ فشهرة الطولونيين تعزى في المقام الأول إلى ثروتهم والرخاء في عهدهم، وبخاصة أن ابن طولون كان همه إسعاد أهل بلده برخص الأسعار في سائر الأطعمة، وكانت الأرزاق وافرة لسائر الناس، ولا شك تأثر المصريون بهذا الرخاء وأخذوا بقسط وافر منه، تمثل ذلك في خلو حقبة ابن طولون من أزمات اقتصادية، ويستدل على ذلك بأن مقاييس النيل التي ذكرها أبو المحاسن[٣٠١] في الفترة الممتدة من٢٥٥هـ/٨٦٩م، وحتى٢٧٠هـ/٨٨٤م، تراوحت ما بين ستة عشر ذراعا وسبعة عشر ذراعا، وهو معدل القياس النموذجي لفيضان النيل، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن جميع المصريين لم ينالوا من ذلك الرخاء بالمستوى نفسه، وإلا ماذا يعني قيام ابن طولون بإعداد الموائد اليومية، وصدقاته الكثيرة على الفقراء، إلا أن يكون هناك فقراء بنسب متفاوتة.

لا شك في أن ازدهار الحياة الاقتصادية يساعد في بناء مجتمع آمن مستقر، واختفت ثورات المصريين، التي ظلت منذ أواخر القرن الأول الهجري تظهر وتختفي، بسبب الأوضاع الاقتصادية، وزاد الانتاج من الحبوب الزراعية زيادة هائلة، وانعكس صدى ذلك على الاحتفالات الشعبية بكل الأعياد الإسلامية والمسيحية على حد سواء، ومشاركة ابن طولون فيها، مثل يوم الغطاس الذي شاهده المسعودي ووصفه في كتابه، فضلا عن أن مصر لم تشهد قحطا أو مجاعات في عهده، وكان فيضان النيل كافيا، رغم أن العالم

[٢٩٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٩، الذهبي: تاريخ الإسلام، الجزء السادس، ص٢٦٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٢١.
[٣٠٠] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص١٣٣، المقريزي: الخطط، الجزء الأول، ص٣٣١.
[٣٠١] النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٢٤-٤٩.

الإسلامي شهد عام٢٦٠هـ/٨٧٤م، غلاء عاما، فبلغ ثمن الحنطة ببغداد مائة وخمسين دينارا ودام ذلك شهورا[٣٠٢].

وانعكس ذلك على الحياة الاجتماعية في عهده، فظهرت في القطائع مشاهد لم ترها مصر من قبل، حيث أصبح الميدان مسرحا لسباق الخيل، واتخذت الاصطبلات العظيمة لكرائم الجياد، وبنى ابن طولون مكانا له أمام ميدان السباق ليشاهد السباق بنفسه[٣٠٣]، وبلغت حلبات السباق حدا من الروعة، كأنها أيام أعياد، وعدت من عجائب الإسلام الأربعة[٣٠٤]، وقارن أبو المحاسن[٣٠٥] الذي عاش في عصر المماليك في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي بين الأعياد في العصر الطولوني، والأعياد في زمنه عندما تحدث عن حلبة السباق في عهد خمارويه قال: إنها كانت تقوم مقام الأعياد لكثرة الزينة، وركوب سائر الجند بالسلاح، وأن الناس كانوا يجلسون لرؤية ذلك كما يجلسون في الأعياد، لا كما في أعياد زماننا هذا، فإن أعيادنا كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد، وكان يحضرها بعض الناس، واستعراض الجيش الطولوني الضخم بفرقه المختلفة وأسلحته المتنوعة، ومن الجدير بالذكر أن الإخشيد قلد ابن طولون في ذلك أيضا[٣٠٦]، وكذلك حضور الولائم التي كان يقيمها يوميا، وينادى عليها "من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر، ويجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك، وهم يأكلون ويحملون معهم إلى بيوتهم".

وكانت صدقاته التي جرت مجرى المثل مما يقرب المصريين إليه، وكان مقررا لها في كل شهر ألفي دينار[٣٠٧]"، ويقول عنها:"هذه صدقات الشكر على تجديد النعم[٣٠٨]"، شكى إليه يوما عامل الصدقات:" أنه تمتد إليه الأيدي المخضبة الناعمة، وفي الأصابع الخاتم الذهب"، فقال له ابن طولون:"كل من مد إليك يده فأعطه، فهذه هى الطبقة المستورة التي

---

[٣٠٢] ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص١٥٠

[٣٠٣] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص٢٩.

[٣٠٤] هذه الأربعة عند القضاعي هى: هذا العرض، ورمضان بمكة، والجمعة ببغداد،والعيد بطرسوس، المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٩٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص٦٠.

[٣٠٥] النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص ١٧-١٩.

[٣٠٦] ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص٤١٨ سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص١٢٠.

[٣٠٧] المقريزي: الخطط، الجزء الثاني، ص٨٧-٨٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٧

[٣٠٨] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٢-١٩٤، المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٥٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص ١٧.

ذكرها الله عز وجل في كتابه، فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك[٣٠٩]"؛ ولذلك خصص ديوان سمى ديوان المستورين دون فيه أفراد هذه الطبقة، وخصص لهم مرتبات شهرية، مثل: إمام المسجد الذي كان يصلى خلفه، ويحب سماع صوته بقراءة القرآن وعندما علم أن عليه دينا أهمه، قام بقضاء دينه، وكتب اسمه في دفتر المستورين، وأجرى عليه خمسة دنانير في كل شهر، والعجوز الذي حضر يوما طعامه، وتندر به بعض الحجاب فغضب ابن طولون، وأحضر الشيخ العجوز وأكرمه ووهبه مالا كثيرا، وأمر الحاجب أن يحمل بنفسه طعامه إلى منزله، وأمر معمر الجوهري أن يثبت اسمه وجميع أفراد أسرته في دفتر المستورين الذين تجرى عليهم الجرايات الشهرية[٣١٠]، قال البلوي[٣١١]" كانت نفقات ابن طولون جدا لا هزلا، يحنو على رعيته، ويستجلب دعاءهم، وكان وكده وشغله واهتمامه بإسعاد بلده، يسعى فيما يرخص الله به أسعارهم".

ومن أثر إصلاحاته ظهور طبقة اجتماعية جديدة من أمراء بني طولون والمحيطين بهم، وأفادوا من هذا الثراء والرخاء، فأسهموا في بعض المشروعات المعمارية، وحازوا النفوذ واقتنوا الثروات العظيمة التي قدرت بالملايين، وعاشوا عيشة الترف والرخاء، ولم تشهد مصر من قبل ظهور مثل هذه الطبقة، مثل: الواسطي كاتب ابن طولون الذي كان يعيش في قصر متشبها بالأمراء الطولونيين، على بابه حجاب يثبتون أسماء من يقف ببابه، ويرفعون هذه الأسماء إليه ليأذن لهم بمقابلته، يقول أحدهم: انتظرت أبا عبد الله الواسطي، كاتب ابن طولون في داره حتى رجع من عند ابن طولون، فأوصل إليه بعض الحجاب ثبت من وقف بالباب، ويوسف بن إبراهيم الكاتب وولده أحمد[٣١٢]، الذي كان مشهورا بالثراء كريما مع الفقراء والمحتاجين، ولما توفى يوسف بن إبراهيم حمل خادم ابن طولون صندوقين فوجد فيهما دفاتر جرياته على الأشراف وغيرهم[٣١٣].

---

[٣٠٩] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٩٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص١٧٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٢.

[٣١٠] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٦-١٨٩، ١٩٦-١٩٧

[٣١١] سيرة أحمد بن طولون، ص٣٦٣-٣٦٤،

[٣١٢] مقدمة كتاب المكافأة، ص١٢-١٣.

[٣١٣] ابن الداية: كتاب المكافأة، ص٤٦، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، المجلد الأول، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص٥٥٧-٥٦٠.

كما ظهر أثر جهوده في عهد ابنه خمارويه الذى جنى ثمار غرس أبيه، فقد ازدهرت الحياة كثيرا، وشاعت في القطائع مظاهر الترف والثراء العريض، ونافست سامراء، وبدا البيت الطولوني في مستوى لايقل عن بلاط الخلافة من حيث التقاليد والنظم والرسوم، وتجلى هذا الثراء في ولعه بالبساتين، فجعل الميدان كله بستانا كبيرا، وزرع فيه أنواعا فريدة من الرياحين، وزرع الأشجار وبخاصة النخيل، واقتفى ما كان يفعله أبوه من الخيرات والصدقات والرفاهية، وزاد عليه[٣١٤].

الحكم التاريخي على أحمد بن طولون

يقصد بالحكم التاريخي ما يصدره المؤرخ من نقد أو حكم على أرباب الولايات من الحكام والقادة، أو عصر من العصور مثلا، هذا الحكم يجب أن ينأى به المؤرخ عن التعصب والهوى، وأن يتحرى الدقة في النقل، والتثبت والأناة، وأن يؤدي ذلك الحكم بلغة مهذبة ولسان عف، فيُمدح الشخص إذا أحسن، وأقام العدل في ولايته، وخدم أمته ووطنه، ويُذم إذا كان غير ذلك، دون جنوح إلى تبرير الأخطاء، وإحسان الظن في غير موضعه[٣١٥].

تباينت الآراء في ابن طولون بين مادح وقادح، فالبعض يرى فيه الصلاح والتقوى والبر والجهاد، وآخرون يرونه مثالا للقسوة والعنف والظلم، وكلا الرأيين فيه مغالاة، وشيء من الصحة أيضا، لأنه لم يكن بدعا بين مؤسسى الدول أو نسيجا وحده دونهم، بل شأنه مثل غيره ممن تصدى لإنشاء دولة؛ فهم يستخدمون كل سلاح للوصول إلى أهدافهم، فقلوبهم لا تعرف الرحمة إذا تعلق الأمر بسلطانهم، والكرم والعفو والعطف على الفقراء والمساكين فيما عدا ذلك[٣١٦]، ومن ثم اختلف الحكم عليهم، فمن نظر إلى حسناتهم ومآثرهم وبرهم بالناس مدحهم، ومن نظر إلى كفاحهم السياسي رأى الناحية القاتمة، ولابد من احتساب

---

[٣١٤] الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، سلسلة الذخائر، رقم ٣٨، ص١١١؛
Corbet: The Life and Works of Aḥmad ibn Ṭūlūn,p255.

[٣١٥] محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ص٢٣٢ هامش رقم ١، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤، ص٢٠٥.

[٣١٦] محمد حمدي المناوي: مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٧٠، ص٥٨، أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ص٩٦.

الوجهين معا في الميزان، وما دام عُرف مفتاح سلوكهم، فلا معنى لتشديد الحكم التاريخي عليهم، فقد عاشوا في أزمان كانت الوسيلة الوحيدة للسلامة من أذي خصوهم قتلهم، وكانت قاعدتهم المذهبية التي لم يعلنوها هى قول روبسبير[٣١٧]:" أرسل أعداءك إلى المقصلة قبل أن يرسلوك[٣١٨]".

ينطبق هذا على ابن طولون كما ينطبق على غيره، فله حسناته كما أن عليه سيئاته، فلا عصمة لأحد إلا الأنبياء عليهم السلام، أما البشر فيخطئون ويصيبون، ولست ممن يمدحه على طول الخط، ويلتمس له العذر في كل ما اقترفه[٣١٩]، ولكن فيما يبدو لي أن حسناته ترجح على سيئاته[٣٢٠]، من خلال معرفة بعض جوانب شخصيته التي ظهرت منذ شبابه في سامراء وطرسوس، كما أنه تمتع بصفات الحاكم الكفء، عندما عهد إليه إدارة مصر، إذ ترك بصمات واضحة في شتى الميادين خلال حكمه، ومقاومته للفساد الذي استشرى، فتحسنت الأحوال الاقتصادية والأمنية والاجتماعية وغيرها، فزاد الانتاج ورخصت الأسعار، ونعم الناس بالأمن، فالأمن من الخوف، والطعام من الجوع، من نعم الله على عباده التي لا تنكر.

وكان أكثر ما انتقد ابن طولون فيه إسرافه في سفك الدماء، وكثرة عدد المحبوسين في عهده، فقد ذكر بعض المؤرخين نقلا عن القضاعي –الراوي الوحيد–كانت جميع خصال ابن طولون محمودة، إلا أنه كان حاد الخلق والمزاج، ظلم وسفك كثيرا من الدماء، وأنه كان

[٣١٧] رجل قانون فرنسي زمن الثورة الفرنسية ولد عام ١٧٥٨م وكان له دور كبير في أحداث الثورة، وكان من المنادين بإعدام الملك لويس السادس عشر، وزاد نفوذه وأصبح هو المتحكم في أمور البلاد، وزاد منافسوه فانقلب عليهم، واتهمهم بأعداء الثورة وحكم عليهم بالاعدامات الجماعية، حتى قيل أرسل إلى المقصلة ما يقرب من ستة عشر ألفا. للمزيد، لويس عوض: الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٢، ص٢٣٥-٢٤٤.

[٣١٨] حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، ص٣٩٥.

[٣١٩] من الأمثلة على قسوته التي لا تغتفر سجنه للقاضي بكار رغم كبر سنه، وموقفه من الجماعة المعارضين الذين تجمعوا ليلا وأخذوا يدعون عليه، فقبض عليهم وأغرقهم في البحر وأزال بيتهم كأن لم يكن. البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٢٢٦-٢٣٠.

[٣٢٠] أختلف مع من حكم عليه قبلي، وهو أحد المؤرخين الجادين المدققين، بأن سيئاته ترجح على حسناته، مستدلا بأدلته. للمزيد، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس خلال القرن الرابع الهجري، الجزء الأول، ص٢١٥. والله أعلم.

طائش السيف، أحصى من قتله أو مات في حبسه، فكان ثمانية عشر ألف إنسان[٣٢١]، ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه كعادة المؤرخين من التهويل في الأرقام، وأن بعض الناس قابلوا السيدة نفيسة[٣٢٢] –رضى الله عنها– وأنهم اشتكوا إليها ظلم ابن طولون وعسفه، فقابلته فوعظته ونهته عن ذلك، فعدل عن هذا الظلم والجور لوقته[٣٢٣]، وهذا ينافي الحقيقة حيث إن السيدة نفيسة توفيت سنة ٢٠٨هـ/٨٢٤م، ولم تكن موجودة في عهده.

وفاة ابن طولون

خرج ابن طولون إلى بلاد الشام، ولكنه مرض بعلته التي مات بها فعاد إلى مصر، وكانت أخر كلماته: "يارب ارحم من جهل مقدار نفسه، فأبطره حلمك عنه[٣٢٤]"وتوفي مبطونا في الحادي عشر من ذي القعدة عام٢٧٠هـ/٨٨٤م[٣٢٥]، وعمره خمسون عاما، ومدة إقامته بمصر ستة عشر عاما[٣٢٦]، وكانت جنازته عظيمة حضرها جمع غفير، حتى قيل لم يبق في البيوت رجل ولا امرأة، ووصفها من حضرها بأنه ما رأى مثله لموت خليفة من الخلفاء، ولا غيره ممن عظم قدره[٣٢٧]، وقد عبر بعض المصريين عن رأيه فيه، حين وجده محمد بن علي الماذرائي أثناء مروره بمقبرة ابن طولون، وهو يتلو القرآن فسأله عن سر ذلك؟ فقال:" كان له

---

[٣٢١] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص٦٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٣.

[٣٢٢] هى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد ين الحسن بن علي بن أبي طالب، جاءت إلى مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق، واشتهرت بالتقوى والورع والعبادة، وكان الشافعي يزورها وهى من وراء حجاب، وأوصى عند وفاته أن تصلي عليه فلما مات أدخل نعشه في بيتها ووصلت عليه وثم حمل من عنها، توفيت سنة ٢٠٨هـ.ودفنت في منزلها وهو الموضع الذي فيه قبرها الآن.

[٣٢٣] الابشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق، محمد خير طعمة الحلبي، دارالمعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨، ص١٦١.

[٣٢٤] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٣، ابن الجوزي: المنتظم، الجزء الثاني عشر، ص٢٣٢، الصفدي: الوافي بالوفيات، الجزء السادس، ص٢٦٥-٢٦٦.

[٣٢٥] يعلق البلوي على سبب مرض ابن طولون بقوله: بينما كان له العقل الصحيح والرأي السديد والحدس الصادق، الذي ما كان يخطيء، حتى انقلبت العين في هذا كله دفعة واحدة، وصار هو عدو نفسه، يطعمها سرا من طبيبه السمك والعصيدة الثقيلة المؤذية في حال الصحة، فكيف مع العلة، ثم يخادع نفسه ويسخر منها ويكتم طبيبه حاله، ويعقب قائلا: إلا أنه إذا أراد الله عز وجل أمرا سلب كل ذي لب لبه، حتى تتم مشيئته. سيرة أحمد بن طولون، ص٣٢٧.

[٣٢٦] المقريزي: المقفى الكبير، الجزء الأول، ص٤٢٥، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ملوك الشام والجزيرة، الجزء الثاني، ص٢٧٧. يجب التنويه إلى خطأ مطبعي في ابن الأثير أنه ملك مصر ست وعشرين سنة. الكامل في التاريخ، الجزء السادس، ص٣٣٨.

[٣٢٧] البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص٣٤٤-٣٤٥، ابن دقماق: الانتصار، ص٩-١٠.

علينا بعض العدل، إن لم يكن الكل، فأحببت أن أصله بالقراءة[٣٢٨]"، ويذكر ابن خلكان[٣٢٩]، أنه زار قبره ووصف مكانه بأنه في تربة عتيقة، بالقرب من الباب المجاور للقلعة في القرافة الصغرى بسفح المقطم، وقبره كان معروفا إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[٣٣٠].

خاتمة

من خلال هذا البحث يمكن تقديم نموذج لحاكم حظيت مصر في عهده بالرخاء والأمن والاستقرار، لمن يضطلع بأعباء الحكم بعده، تُستلهم منه العظة والعبرة، فيستفيد من حسناته ويتجنب زلاته، وبذلك تتحقق الاستفادة من دروس التاريخ ، كما ذكر ابن الأثير[٣٣١] في حديثه عن مظالم البريديين "إنه ذكر هذا الفصل ليعلم الظلمة، أن أخبارهم تنقل وتبقى على وجه الدهر، فربما تركوا الظلم لهذا السبب، إن لم يتركوه لله سبحانه وتعالى"، فكان ابن طولون فريد عصره في إدارة البلاد، وحسناته على التحقيق أوفر من سيئاته، ومهما قيل في مؤاخذته فهو إلى الاعتدال أقرب، من معظم أمراء تلك الأيام، فلم نر في أفعاله أعمالا خارقة، وإنما أدى واجبات وظيفته بأمانة وإتقان، ويستفاد من التجربة الطولونية؛ أن حسن إدارة الدولة وتنمية مواردها، وتوفير حياة آمنة لأهلها، وإصلاح أحوالهم، والعمل على رفع مكانتها الحضارية، هو السبيل إلى النهضة المرجوة، كما يمكن تغيير الأوضاع إلى الأفضل في أي بلد، إذا ما توفر الشخص المناسب المؤهل للقيام بهذا الدور.

من المعروف أن الرخاء الاقتصادي هو المفتاح الذي يستطيع الحاكم أن ينفذ به إلى قلوب الناس، لذا عمل ابن طولون في هذا الجانب كثيرا، أقصى عن ديوان الخراج كل من تشكك في ذمته، وقضى على الفساد فيه، ونظمه تنظيما جديدا، وصار لا يضم إلا مجموعة من الموظفين الأكفاء المشهود لهم بالأمانة والعدالة، وكان دائم المراقبة والمتابعة لهم، ومن

[٣٢٨] ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثاني عشر، ص٢٣٣، الذهبي: تاريخ الإسلام، الجزء السادس، ص٣٦٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الثالث، ص١٤.
[٣٢٩] وفيات الأعيان، الجزء الأول، ص١٧٤.
[٣٣٠] حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، الجزء الأول، دار الكتب، القاهرة، ١٩٤٦، ص٩٠.
[٣٣١] الكامل في التاريخ، الجزء الثامن، ص٣٨١-٣٨٢.

ثبتت عليه تهمة قام بمحاسبته وعزله على الفور، وربما كان الوازع الديني عنده له أثر في ذلك، والاهتمام بعمارة الأرض الزراعية، حتى أتت الأرض ثمارها، وفاضت بالخير والعطاء، وطور الصناعة وعمل على رواج التجارة، ونتيجة لذلك حقق الإصلاح الذي ينشده، وإذا كان عمرو ابن العاص هو صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الإسلامية، فإن ابن طولون هو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصري خاص داخل الكيان الإسلامي العام، وكان النموذج الذي سار على منواله الأخشيديون ثم الفاطميون ومن بعدهم.

ختاماً إذا كان لابد من كلمة في حق الطولونيين، فهى أنه على الرغم من أنهم ينتمون إلى أصول غير مصرية، فإن فترة حكمهم تمثل صفحة رائعة في تاريخ مصر، ذلك لأنهم كرسوا جهدهم للنهوض بالبلاد وارتبطوا بها، وتقربوا من المصريين وأحاطوهم برعايتهم واستمالوهم إلى جانبهم؛ وأبلغ دليل على ذلك ما قاله البلوي في ابن طولون" إشفاقه على أهل مصر كان يزيد على كل إشفاق، حتى إنه كان يجوز إشفاق الوالد على ولده، يحوطهم ويرعى أحوالهم، ومصالحهم ويدفع عنهم كل مكروه"، كما أكدت التجربة الطولونية على قدرة الدولة في بناء سياستها الداخلية والخارجية دون الخضوع لأي إرادة خارج حدود إقليمها، وبالتالي يتيح لها الحرية في صنع قرارتها دون أية قيود إلا بما تفرضه عضويتها في المنظمات الإقليمية والدولية.

قائمة المصادر والمراجع:

-الأبشيهي:(شهاب الدين محمد بن أحمد ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م): المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق، محمد خير طعمة الحلبي، دارالمعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨.

-ابن الأثير(عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧.

-الإسحاقي المنوفي(محمد عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد ت ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م): أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، سلسلة الذخائر، رقم ٣٨.

-ابن إياس الحنفي (أبو البركات محمد بن أحمد ت٩٢٩هـ/١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق، محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

-البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني ت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي): سيرة أحمد بن طولون، تحقيق، محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

-الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩هـ/٨٩٣م): الجامع الكبير سنن الترمذي، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قرة بللي، الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.

-التلمحري (ديونسيوس التلمحري ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م): تاريخ الأزمان، ترجمة، شادية توفيق حافظ، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

-ابن جبير (محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ/١٢١٤م): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، بدون.

-ابن الجوزي (عبد الرحمن بن محمد بن علي ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م): المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق، محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

-ابن حجر العسقلاني(شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م): رفع الإصر عن قصاة مصر، تحقيق، علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٩٨.

-الحميدي(أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م): جذوة المقتبس، تحقيق، بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨،

-الحميري(محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي): كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤

-ابن حوقل(أبو القاسم محمد بن علي النصيبي ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان،١٩٩٢.

-ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): تاريخ ابن خلدون، طبعة بولاق، ١٢٧٤هـ.
ـــــــــ: مقدمة ابن خلدون، تحقيق، علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦.
-ابن خلكان(شمس الدين أبو العباس أحمد ت٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر ، بيروت.
-ابن الداية(أحمد بن يوسف الكاتب ت بعد ٣٣٠هـ/٩٤٢م): كتاب المكافأة وحسن العقبى، تحقيق، محمود محمد شاكر، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.
-ابن دقماق(إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري، بيروت، لبنان، ١٨٩٣.
-الذهبي(شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م): سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، وصالح السمر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
ـــــــــ: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
-ابن زولاق(الحسن بن أبراهيم بن الحسين بن علي بن خالد بن راشد ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) : فضائل مصر وأخبارها، تحقيق، علي محمد عمر، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩.
-ساويرس بن المقفع(ت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي): تاريخ البطاركة، إعداد، الأنبا صموئيل، النعام للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.
-ابن سعيد الأندلسي(علي بن موسى بن محمد ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق، زكي محمد حسن وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، سلسلة الذخائر، رقم ٨٩.
-السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ/١٥٠٤م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٩٦٧.
ـــــــــ: تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

-الشابستي(أبو الحسن علي بن محمد ت٣٨٨هـ/٩٩٨م): الديارات، تحقيق، كوكيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٦.

-ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ملوك الشام والجزيرة، الجزء الثاني، تحقيق، يحيي زكريا عبارة، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩١، احياء التراث العربي، رقم ٧٩.

-الصفدي(صلاح الدن خليل بن أيبك ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م): الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

-الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الطبري، تحقيق، محمد أبو الفصل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦.

-ابن الطقطقا(محمد بن علي بن طباطبا): الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دارصادر، بيروت.

-ابن ظهيرة(من علماء القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي): الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ملتقي أهل الأثر، القاهرة، ١٩٦٩.

-ابن عبد الحكم(عبد الرحمن بن عبد الحكم بن أعين ت٢٥٧هـ/٨٧١م): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق، محمد صبيح، مؤسسة دار التعاون، القاهرة.

-ابن عساكر(ابو القاسم علي بن الحسن بن عبد الله ت ٥٧١هـ/١٢٧٥م): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق، محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.

-عياض(ابن موسى بن عياض السبتي ت٥٤٤هـ/١١٤٩م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

-ابن الفرضي(أبو الوليد عبد الله بن محمد ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م): تاريخ علماء الأندلس، تحقيق، بشار عواد معروف، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

-القلقشندي(شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٩١٧.

-الكندي(أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب ت ٣٥٠هـ/٩٨١م): الولاة والقضاة، صححه رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، ١٩٠٨.
-أبو المحاسن(جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.
-المزي(جمال الدين أبو الحجاج يوسف ت ٧٤٢هـ/١٣٤٢م): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.
-المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): كتاب المقفى الكبير، تحقيق، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.
ـــــــــ: الخطط المقريزية، تحقيق، محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.
ـــــــــ:المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق، أيمن فؤاد سيد، منشورات دار الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،٢٠٠٣.

ـــــــــ : رسائل المقريزي، النقود القديمة الإسلامية، دراسة وتحقيق، رمضان الدربي وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٨.
ـــــــــ: تاريخ الأقباط، المعروف بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي، دراسة وتحقيق، عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٥.
-المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسينبن علي ت ٣٤٦هـ/٩٧٥م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، إخراج، كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية ، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.
-ابن وصيف شاه(إبراهيم بن وصيف شاه ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م): جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصرية، تحقيق، محمد زينهم عزب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤.

-ابن الوطواط(جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيي ت ٧١٨هـ/١٣١٩م): غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، تعليق وضبط، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

-ابن أبي الوفاء(محي الدين أبو محمد بن عبد القادر بن نصر ت ٧٧٥هـ/١٣٧٤م): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، الرياض، الطبعة الثانية،١٩٩٣.

-النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، نجيب مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

-ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، تحقيق، فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـــــــــ: معجم الأدباء، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

--اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ت بعد ٢٨٤هـ/٨٩٧م): تاريخ اليعقوبي، نشر مطبعة الغرى، النجف، العراق، ١٣٥٨هـ.

ابن يونس الصدفي(عبد الرحمن بن أحمد ت ٣٤٧هـ/٩٥٨م): تاريخ ابن يونس الصدفي، جمع وتحقيق، عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

المراجع العربية

-إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية، مكتبو الانجلو، القاهرة، ١٩٧٥.

-إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

-أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦.

-أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧.

-أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٠.

-أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

-أحمد محمد عيسى: شرح غريب ألفاظ كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٩٦.

-آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٨.

-الأب أنستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩.

-توفيق سلطان اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٠.

-جروهمان: أوراق البردي العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد الحميد حسن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥.

ـــــــ: محاضرات في أوراق البردي العربية، ترجمة ، توفيق إسكاروس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠.

-جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية ، دارالمعارف، القاهرة، بدون.

-حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون.

-حسن الباشا: القاهرة، تاريخها، فنونها ، آثارها، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة،١٩٧٠.

-حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، نشر ضمن: تاريخ الحضارة المصرية ، أعده نخبة من العلماء، المجلد الثاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر.

-حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢.

-خالد عزب: دار السلطنة في مصر، العمارة والتحولات السياسية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧.

-زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه، زكي حسن وحسن محمود، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٠.

-زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، القاهرة، ١٩٨١.

-زكي محمد حسن: مصر والحضارة الإسلامية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣.

-ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة، أحمد سالم سالم، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٥.

-السيد طه أبو سديرة: الحرف والصناعات في مصر ألإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١.

-سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة،١٩٥٠.

ـــــــــ:سيدة إسماعيل كاشف: أحمد بن طولون، المؤسسة العربية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥.

ـــــــــ: مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، تاريخ المصريين رقم ١٤.

ـــــــــ: مصر في فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩.

-صفاء حافظ عبد الفتاح: المواني والثغور المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، تاريخ المصريين رقم ٢٨٢.

-عبد العزيز جمال الدين: موسوعة تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

-عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤.

-عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، دارالنهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦.

-علية عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية، على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣.

-عمر طوسون: مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.

-فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

-فؤاد فرج: القاهرة، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٤٣.

-قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، عين للدراسات، القاهرة، ٢٠٠٣.

-لويس عوض: الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٢.

-محمد أحمد زيود: العلاقات بين مصر والشام في العصرين الطولوني والإخشيدي، دار حسان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

-محمد أمين صالح: دراسات اقتصادية في تاريخ مصر الإسلامية، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠.

-محمد حمدي المناوي: مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة،١٩٧٠.

-محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد الصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

-محمد بن صامل: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

-محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، بدون، ١٩٧٤.

-نريمان عبد الكريم: دراسات في تاريخ مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.

-نظير حسان سعداوي: نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة، مصر، ١٩٥٣م.

- ابن هاشم الطباخ الحلبي: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، نقحه ووقف على طباعته، محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.

-هويدا عبد العظيم: المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

الدوريات العربية

-إمام الشافعي محمد محمود، وأشرف صالح محمد سيد: جامع ابن طولون، الرمزية السياسية، الأسطورة، المعتقد الشعبي، مجلة التراث العربي، العدد ٣٩، ٢٠١٨.

-إيمان مصطفى عبد العظيم: سياسات الخراج المصري بين العسف والعدل، في عهدي ابن المدبر وابن طولون، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، المجلد ٤٤، ٢٠١٦.

-خالد حسين محمود: رقيق السلطة في العصر الطولوني، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد رقم ٤٤، العدد الأول، مايو٢٠٠٦.

-سامي محمد نوار: المنشآت المائية بمصر، منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي، دراسة أثرية، دار الوفاء، الإسكندرية، ١٩٩٩.

-صفى على محمد: العلاقة بين مصر ودار الخلافة، عصر أصحاب الإقطاع عصر نفوذ الأتراك، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، العدد ١٤، الجزءالأول، ٢٠٠٦.

-عبد الرازق حويزي: جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور، ليس لابن وصيف شاه المصري، مجلة معهد المخطوطات العربية،القاهرة، العدد الرابع والخمسون، الجزء الثاني، ٢٠١٠.

-عبد الرءوف على يوسف: دراسة في الزجاج المصري، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، الجزء الثاني، مارس -أبريل ١٩٦٩، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١.

-محمد عيد قويدر: أوضاع الثغور الإسلامية الشامية في فترة الحكم الطولوني لبلاد الشام، مجلة البلقاء، الأردن، المجلد السابع، العدد١، سنة٢٠٠٠.

-محمود محمد خلف: أسرة الفرغاني ودورها في تطور الهندسة المعمارية في مصر الإسلامية، مجلة جيل، العلوم الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، العدد ٢٥، ٢٠١٦.

المراجع الأجنبية

1-Corbet Eustace K: The Life and Works of Aḥmad ibn Ṭūlūn, The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland , Oct., 1891, pp. 527-562, Published by: Cambridge University Press,Stable URL: http://www.jstor.com/stable/25197067

2- Fahmy Ali Mohammed : Muslim Sea Power in the Eastern Mediterranean from the seventh to tenth century A.D,London, 1950
3-Lane poole Stanley: Catalogue of the collection of Arabic coins preserved in the khedivial library at cairo,london,1897
4-The Encyclopaedia of Islam,New Edition,Volume 1, leiden, Brill,1986
5-Zaky Mohamed Hassan: Les Tulunides Etude de l Egypte Musulmane,a la fin du 1x siecle,paris,1933.